المقّرى

صاحب نفح الطِّيب

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

مقدمة

لا أدرى ما الذى شدنى الى الكتابة عن هذا الرجل المغربى العجيب ، الموسوعى النظرة ، الذى جمع بين الفقة والحديث والتاريخ والأدب والمحاضرة والمسامرة والوعظ والارشاد ، فكان فى ذلك كله نادرة من نوادر الزمان ؟

ولقد بدأ اهتمامى بأبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى من سنوات عديدة ، منذ قرأت له « نفح الطيب » فى أجزائه الأربعة الضخمة ، فكنت أقف فى كثير من المواضع ، وتخرج بى استطرادات الرجل الكثيرة المتعاقبة الى فنون من الأدب ، وشعب من المسائل ، وذخيرة من التاريخ ، ورياض من الأسمار ، وطرائف من الأشعار ، فأعجب من هذه العقلية الموسوعية ، التى تفيض كالبحر ، وتتدفق كالسيل ، وتجمع من شتيت الأخبار ما تفرق ، وتضم ما اختلف .

وزاد من اعجابى بنفح الطيب وصاحبه أن الكتاب جمع من تاريخ الأندلس ومن تاريخ المسلمين فيها ما لا تجده فى كتاب غيره . وقد أتاح له تأخر زمانه فى القرن الحادى عشر الهجرى أن يصل من أخبار الأندلس ما انقطع بعد النكبة التى أصابتها بل أصابت الأسلام فى بقعة عربية كريمة كانت قطعة من الأرض

العربية فى أوروبا ، وظلت على ذلك بضعة قرون ، الى أن تأذن الله لشمسها أن تأفل ، ولملكها أن يزول .

وقل أن تجد فى كتاب آخر عن الأندلس ما تجده فى « نفح الطيب » فقد أتيح للمقرى من الكتب ما لم يتح لنا الى اليوم أن نعثر عليه . ووقع له من المصادر ما لاوجود له اليوم ، وبهذا استطاع أن ينقل نصوصا كثيرة لا نستطيع الى الحصول على أصولها اليوم سبيلا . وقد كان للرجل عناية بالغة بالكتب ، واطلاع دائم عليها ، وقوة عظيمة فى حفظها والرواية عنها ، وأفاد من خزانة الكتب الخاصة بأبى المعالى زيدان السعدى — سلطان المغرب فى وقته — فائدة عظيمة . وقد كانت تلك المكتبة تحتوى على ثلاثة آلاف سفر من أنفس الكتب .

ولقد كان فضل « المقرى » ، الذى لا يجحده الا منكر ، أنه استطاع فى « نفح الطيب » أن يصون لنا نقولا ونصوصا كثيرة . واذا لم يكن له فضل الناقد المؤرخ ، فله فضل الحافظ المدون . وهو فضل لا يستهان به ، وخاصة فى تاريخ الأندلس التى ضاع كثير من تاريخها ومعالمها على اثر المحن والنكبات المتعاقبة التى توالت عليها ، حتى خرج أهلها منها الى العدوة الأفريقية بالمغرب مجردين من كل شىء الا من ذكريات أمسهم الدابر ، وعزهم الغابر ...

ولم يكن المقرى شاهد عيان لنكبة العرب والمسلمين فى الأندلس ، ولكنه جاء الى هذه الدنيا بعد المحنة بما لا يزيد على

قرن من الزمان . ولعل أصداءها الحزينة كانت لا تزال على عهده ترن فى المغرب الذى أنجب هذا المؤلف العظيم . بل لقــد شهد بعينيه فى مدينة فاس ألوف العرب الذين أجبروا على التنصر أولا، وعلى الخروج من أرضهم الطيبة ثانيا ، وكان ذلك فى سنة ١٠٢٧ هـ ١٦٠٨ م قبل أن يغادر وطنه المغرب فى سبيله الى القاهرة والشرق سنة ١٠٢٧ هـ .

وما كان أروع المقــرى وهو يصف لنا فى ســطور قليــلة ـــ ولكنها مزدحمة بالمعانى ـــ خروج آخر سلاطين الأندلس منها بعد ما ضــاع ملــكه ، ونزوله بمليلة ، ثم بمدينــة فاس (بأهله وأولاده ، معتذرا عما أسلفه ، متلهفا على ما خلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ...)

وما كان أشد الأسى فى عبارته ، وهو يصف لنا بعد ذلك ذرية سلاطين الأندلس ، وهم بمدينة فاس بالمغرب على عهــده (يأخــذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..) .

ومن عجيب قضاء الله أن أبا العباس المقرى الذى أفاد كل مؤرخ للأندلس ، وكل كاتب عنها ، من كتابه « نفح الطيب »، لم ينل من عناية المؤرخين المعاصرين والمحدثين الا قليلا ، لا يفى بفضله ، ولا يجزىء فى الترجمة له ، والتعريف به . فكان من ذلك فصل للأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « تراجم اسـلامية

شرقية وأندلسية » . وكان من ذلك مقال فى مجلة الثقافة — العدد ٦٣٠ — للأستاذ على أدهم ، وكان من ذلك رسالة أصدرتها دار الكتب الشرقية بتونس للأستاذ الحبيب الجنحانى سنة ١٩٥٥ .

وقد حملنى ذلك التقصير فى حق « المقرى » الذى أقام فى القاهرة أربعة عشر عاما ملأها وملأ أزهرها المعمور بعلمه ودروسه، وصنف فيها « نفح الطيب » كله من أوله الى آخره — وهو بعيد عن كتبه ومراجعه فى المغرب — ونادته منيته فيها حيث دفن بثراها الطاهر فى قرافة المجاورين — أقول حملنى ذلك وحملنى غيره من اعتبارات الأخوة بين المغرب العربى والمشرق ، أن أكتب هذه الدراسة عن هذا الرجل ، وفاء له ببعض الدين الذى أسلفه الى القاهرة ، بل الى بلاد العرب والأسلام .

وأرجو مخلصا أن يرضى القارىء العربى الكريم عنها ، وأن يلمس الجهد الذى بذلته فيها وبالله التوفيق .

محمد عبد الغنى حسن

ملامح عصر

يجدر بنا قبل أن نصور العصر الذى عاش فيه المقرى فى المغرب حتى خرج منه راحلا الى الشرق سنة ١٠٢٧ هـ أن نرتد قليلا الى القرن العاشر الذى ولد صاحبنا فى العقد الأخير منه على الراجح .

وقد شهد العقد الثالث من القرن العاشر الهجرى استيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر والشام وبذلك صارتا ولايتين عثمانيتين . وكان ذلك بداية الاحتلال التركى فى الشرق العربى .

وقد اتسعت حملات العثمانيين فى أخريات عهد سليم ، وعهد ابنه سليمان القانونى ، فامتدت الى الشمال الأفريقى بفضل قرصنة أسرة بربروس ورئيسها خير الدين الذى كان أكبر قائد بحرى فى وقته . وما زالت مطامع الأتراك تمتد فى أفريقيا والمغرب حتى استولى حسن بن خير الدين التركى على تلمسان من أرض الجزائر سنة ٩٥٢ هـ . وتلمسان هى المدينة التى كانت مقر آباء المقرى بعد رحيلهم اليها من « مقرة » ، كما كانت أرض ميلاده . وباستيلاء الأتراك على تلمسان انقرضت دولة بنى زيان منها ، وعز على السلطان «أبوعبدالله الشيخ» سلطان الدولة السعدية بالمغرب — أن يستولى الترك على تلمسان والمغرب الأوسط ، وهم أجانب

عن البلاد دخلاء عليها . فجرد جيشا لاسترداد تلمسان . ونجح فى ذلك فدخلها سنة ٩٥٧ وطرد الأتراك منها . ولكنهم عاودوا الكرة وانتهت الى أن صارت فى أيديهم .

وكان حادث استيلاء الأتراك على تلمسان سببا فى توتر العلاقات بين السلطان العثمانى وسلطان المغرب ، وكثيرا ما قام الوسطاء بالسفارة بينهما ، كما كان أمر « أبى عبد الله الخروبى » الطرابلسى نزيل الجزائر . وامتدت مطامع الأتراك الى فاس من بلاد المغرب ، حتى لقد عاونوا على قتال السلطان أبو عبد الله الشيخ وطرده من فاس ، ولكنه استطاع أن يعود اليها ويستولى عليها سنة ٩٦١ هـ . ويصفو له أمر المغرب .

ولا بد أن نشيد هنا بشجاعة السلطان « أبو عبد الله الشيخ » ووطنيته وقوميته العربية . فقد كان من أوائل أهل المغرب الساخطين على الحكم العثمانى فى مصر والتدخل العثمانى فى الشمال الأفريقى ، وكان ناقما على السلطان العثمانى سليمان القانونى ، وكان يطلق لسانه فيه بما كان يصل اليه وتنقله العيون عنه . حتى لقد بلغه قوله : (لابد أن أغزو مصر ، وأخرج الترك من أحجارها ... !) وبلغ من وقاحة السلطان سليمان العثمانى وطموحه الى الاستيلاء على المغرب أنه لما انقضت دولة الوطاسيين ، واستقر الأمر لدولة السعديين بالمغرب ، كتب الى « الشيخ » يهنئه بالملك ، ويطلب منه أن يدعى له على منابر المغرب ! وبعث له رسولا بذلك . ولما سمع « الشيخ » كلام

السلطان العثمانى على لسان الرسول غضب ، وحمى أنفه ، وأبرق وأرعد : فلما طلب منه الرسول الجواب أجابه محتدا : (لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر ان شاء الله ، وحينئذ أكتب الى سلطان القوارب !!) يعنى سلطان قراصنة البحار !! ولقد جزع الرسول من غضب « الشيخ » وخشى أن يصيبه منه شر ، فخرج خائفا يتلفت ...

وكانت نتيجة موقف « الشيخ » من السلطان سليمان القانونى انه ما زال بهذا الوطنى العظيم حتى دبر له من الأتراك من قتلوه فى وطنه ، وبعثوا برأسه اليه فى الآستانة ، فأمر بأن تعمل له شبكة من نحاس ، ويوضع فيها ، ويعلق على باب القلعة ...

ولم يزل الرأس معلقا الى أن جرت الأحداث بأن يفد الى الآستانة ولدا أبى عبد الله الشيخ المقتول ، ليستعديا السلطان العثمانى على ابن أخ لهما ينافسهما فى الملك .. !

وعاود الاتراك الكرة على فاس للاستيلاء عليها بقيادة حسن خير الدين بربروس ، ولكن الهزيمة كتبت عليهم . وكان المتنازعون على الملك من أبناء أسرة « الشيخ » يلجأون الى أعدائهم الأتراك للاستعانة بهم على بعضهم بعضا ، كما كانوا يلجأون الى أعدائهم من غير المسلمين — من الأسبان والبرتغال — لذلك الغرض نفسه . فنسوا فى سبيل الملك أوطانهم ، بل نسوا دينهم ، مما جر عليهم البلاء والانقضاء . وكان نزاع الأخوة وأبناء العم والأبناء من دولة السعديين بالمغرب ظاهرة

تلفت النظر ، حتى استغلها العدو العثمانى : والعدو المسيحى الآخر القريب منهم لمصلحته . ولم تستطع هذه الدولة أن تهدأ بعض الهدوء النسبى الا فى عهد السلطان أبى العباس أحمد الملقب بالمنصور ، والمعروف بالذهبى ، بسبب كثرة الذهب فى عهده بما فتح الله عليه من التملك والفتوح فى قلب البلاد السودانية ، (حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى ، والدينار الوافى . وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى ، دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى ...) [1] وقد أدرك صاحبنا المقرى عصر المنصور الذهبى الذى توفى سنة ١٠١٢ هـ . ولعله لقيه فى زيارته الأولى لفاس سنة ١٠٠٩ ، وان كانت هجرته الأولى الى فاس للتوطن بها لم تكن الا سنة ١٠١٣ ، أى بعد وفاة المنصور بعام واحد .

وقد شهد المقرى فى عهد المنصور السعدى أمورا كثيرة الا أن ذلك كان فى أخريات عهد المنصور ، فقد كان المقرى قبل ذلك جنينا فى ضمير الغيب .. ولعل أغرب ماشاهده المقرى فى عهد المنصور هو ثورة ولده المسمى « بالمأمون » عليه ، وخروجه على والده بفاس ، وتصميمه على الاستعانة بالأتراك فى تلمسان على والده السلطان ، والاستجارة بهم ، للتخلص من أبيه ، والاستيلاء على الملك بدلا منه . وكان ذلك سنة ١٠١٠ هـ ــ أى قبل رحيل المقرى الى فاس بثلاث سنوات .

---

(١) الاستقصا ــ للسلاوى ــ جـ ٥ ص ١٢٥ .

على أن المقرى شهد فى عصر خلفاء السلطان المنصور السعدى أمورا كثيرة من الفتن والمنازعات والحروب الداخلية بينهم ، طمعا فى الملك ، وتنافسا على السلطان . وكان فى مراكش جبهة ، وفى فاس جبهة ، ينشب من كل منهما الصراع المرير بين أبنـاء البيت الحاكم الواحد . حتى السلطان أبو المعالى زيدان بن المنصور ، والذى كان المقرى فى كنفه مقربا منه مستفيدا من خزانة كتبـه الخاصة ... هذا السلطان انحرفت عنه مراكش بجبهتها المعادية له. وكان ما كان من أمر فتنة العرائش التى تجد تفصيلها هنا فى فصل خاص .

هذه لمحة خاطفة عن الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيـه المقرى بالمغرب . ولقـد كان أعداء المسلمين من الأسـبان والبرتغاليين يفيدون من هذه الاضطرابات والفتن والمنازعات بين الأبناء والأخوة وأبناء العم على السلطان حتى انتهى الأمر بسقوط دولة السعديين وقيام دولة أخرى بالمغرب .

وليس المهم أن تسقط دولة وتقوم أخرى ، ولـكن المهم أن هذه الأحداث المتتابعة لم تدع لبلاد المغرب سبيلا الى الهدوء ، والاستقرار ، والتقدم الى الأمام .

بين المولد المغربي والنسب القرشي

من هو المقرى ؟

هو شـــهاب الدين أحمـــد بن محمد بن أحمـــد بن يحيى ابن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمـــد المقـــرى . ويكنى أبا العباس ، ويلقب بشهاب الدين .

وهذا النسب الذى ننقله هو عن صاحب « خلاصة الأثر » . أما نسبه ابتداء من جده أبى عبد الله محمد الذى كان من أكابر شيوخ الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، فنحن ننقله عن المقرى صاحب نفح الطيب الذى نقله عن كتاب « الاحاطة » ، كما جاء فيه : (محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر ، بن يحيى ، ابن عبد الرحمن ، بن أبى بكر ، بن على القرشى المقرى) (١) .

وأنت ترى من هذه النسبة التى ذكرها لسان الدين بن الخطيب الأديب الأندلسى الكبير أنهم قرشيون : وأنهم ليسوا من أهل المغرب وأصحابه الأولين ، بل هم وافدون عليه من الجزيرة العربية فيمن وفد الى الغرب والأندلس .

والطريف فى أمر هذا النسب القرشى أن صاحبنا أحمد المقرى

---

(١) نفح الطيب جـ ٣ ــ ص ١١٠ .

يشير الى أن أحد المغاربة لما اطلع عن نسخة كتاب « الأحاطة » الذى فيه هذا الكلام ، كتب على هامش الكتاب فى هذا الموضع عبارة تفيد أن ابن الخطيب واهم فى ذكره لهذا النسب القرشى . ولم يزد هذا المعلق المغربى على هذا أكثر من قوله أمام هـذا الموضع من الاحاطة : القرشى وهم .

ولم يزد هذا المعلق على هذه الجملة القصيرة شيئا ، ولم يقل من أين جاء الوهم الى هذا النسب . وقد أتيح لهذه النسخة من كتاب الأحاطة أن يطلع عليها عالم قديم من علماء المغـرب اسمه أبو الفضل التلمسانى ، ووقف عندما علق به المغـربى من انكار النسب القرشى على بيت المقرى . فكتب تحته ما نصه : (بل صحيح ! نطقت به الألسن والمكاتبات والأجازات ، وأعربت عنه الخلال الكريمة . الا أن البلدية ـــ أى المشاركة فى البلد الواحد ـــ يا سيدى أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى امام المغرب أبى عبد الله المقرى وهما ! والحمد لله) [٢] .

ولم يسكت صاحبنا أحمد المقرى على هذا الأنكار لنسبهم القرشى من بعض المغاربة . فأتى بتعليق أبى الفضل التلمسانى السابق وزاد عليه قوله : (وممن صرح بالقرشية فى حق الجـد المذكور ، ابن خلدون فى تاريخه ، وابن الأحمر فى « نثر الجمان » وفى « شرح البردة » عند قوله :

---

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١١٠ .

لعل رحمة ربى حين ينشرها .

والشيخ ابن غازى ، والولى الصالح سيدى أحمد زروق ، والشيخ علامة زمانه سيدى أحمد الوانشريشى ، وغير واحد . وكفى بلسان الدين — يعنى لسان الدين بن الخطيب — شاهدا مزكى) .

وقد جمعت أسرة المقرى القديمة الى شرف النسب القرشى ، كثرة الولد ، وارتفاع الأحوال ، وسعة الأموال . ويشير أبو عبد الله محمد جد المقرى الى هذا ، واصفا كيف اشتهرت ذرية جدهم عبد الرحمن بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء فى المغرب بحفر الآبار ، وتأمين التجار . وكان لهم من سمات الامارة ما جعلهم يتخذون لهم طبلا عند المسير ، وراية تقدم على رواحلهم اشارة اليهم ، وتخصيصا بهم . واتخذوا بأقطار المغرب الحوائط الواسعة المملوءة بأشجار الفاكهة ، واتخذوا الدور والمصانع ، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الاماء .. واتصل هؤلاء المقريون بأمراء أفريقية وسلاطينها ، فتذللت لهم الأرض للسلوك — كما يقول جد المقرى — (فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت تفوق الحصر والعد) .

ولكن هذه النعمة الوافرة ، والثروة الطائلة لم تدم ، فأسرف الأبناء فى النفقة ، ولم يقوموا بأمر تثمير المال كما قام آباؤهم ، وأصابتهم الفتن المتوالية التى كان المغرب لم يسلم منها ، وتناقص حالهم وأمرهم ، الى حد أن أبا عبد الله محمد — جد المقرى —

رأى بعينيه تناقص حال أجدادهم فى عهده ، فقال : (فهأنذا لم أدرك من ذلك الا أثر نعمة ، اتخذنا فصوله عيشا وأصوله حرمة ، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ..) .

وما زال الحال يتناقص بهذه الأسرة القرشية الكريمة الى أن جاء عهد أحمد المقرى المترجم له ، فوجد المال قد ضاع كله ، ولكن السيادة والشرف لم يضع ، ووجد آثار المكتبة العظيمة التى أشار اليها جده ، فأفاد منها كما أفاد بها أبوه من قبله ، وان كان الله شاء أن يبعد عن هذه الخزانة الحافلة بالكتب حين رحل الى المشرق ، وأن لا يعود اليها ، فقضى بالقاهرة [٣] .

وقد اهتم المقرى بأخبار جده أبى عبد الله . وأورد له فى الجزء الثالث من النفح ترجمة طويلة نقلها عن « الاحاطة » كما نقل تراجم شيوخه الكثيرين الذين أخذ عنهم فى المغرب ، أو لقيهم بتونس ، أو قابلهم فى مصر والحجاز والشام وبيت المقدس ، ويربى عددهم على الثلاثين شيخا ، ومنهم أبو حيان الغرناطى العالم النحوى الكبير الذى لقيه بمصر (فرويت عنه واستفدت منه) .

---

(٣) كثيرا ما يشير المقرى الى كتبه الكثيرة التى تركها وراءه بالمغرب ، والى أنها ليست فى يده بمصر ساعة تأليفه النفح ، فيقول فى ج ٣ ص ١٧٤ : (وقد ملكت بفاس مجلدا ضخما بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم مولاى الجد ، وسماه بالزهر الباسم ، وأطال فيه فى مدح مولاى الجد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرنى الآن ، لكونى تركته مع جملة كتبى بالمغرب .

ولقد كان جـد المقرى رجلا عالما جليلا مباركا ، فشيوخه كثيرون كما ذكرنا ، وتلاميذه كثيرون مشهورون فى عالم الفقه ، ودنيا الأدب ، وروضة الشعر ، وساحة التاريخ ، ومجال التصوف ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب ، والوزير الأديب عبد الله ابن زمرك ، ومحمد بن سعيد الصنهاجي عالم الفقه وحجة القضاء ، وابن خلدون المؤرخ وصاحب المقدمة المشهورة ، وأبو اسحاق الشاطبى ، وعبد الله بن جزى ، ومحمد بن عباد الرندى الولى الشهير وشارح حكم ابن عطاء الله السكندرى . ويعتز المؤرخ ابن خلدون بتلمذته على أبى عبد الله محمد جد المقرى ، فيعبر عنه تارة بصاحبنا ، ويعبر عنه فى بعض المواضع بشيخنا [٤] .

ويشير أكثر المؤرخين والعلماء المغاربة الى جـد المقرى فى مؤلفاتهم ، مما يؤكد انه لعب دورا هاما فى تاريخ الحركة العلمية بهذا القطر الشقيق منذ بضعة قرون . وقد حفظ له المغرب هذا الجميل ، فألفت فى سيرته ثلاثة كتب ، أولها : « النور البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » لأبى عبد الله بن مرزوق شيخ شيوخ المغرب فى وقته . وثانيها كتاب أبى العباس الوانشريشى فى التعريف بالمقرى ، وثالثها كتاب « الزهر الباسم » لأحد علماء مدينة فاس الذى تقدمت الاشارة اليه فى هذا الفصل .

ولا بأس هنـا أن نستطرد الى لقاء جد المقرى مع المؤرخ ابن خلدون ، فقد كان لقاء طريفا بالقاهرة ، وقد كان جد المقرى

---

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٥ .

نازلا بها فى خلال رحلته الطويلة الى المشرق . وندع ابن خلدون نفسه يصور لنا هذا اللقاء الذى دار فيه الحديث حول عظمة مدينة القاهرة (حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك . تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران ، واتساع الأحوال . ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى ، فقلت له كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام)[٥] .

وقد امتاز جد المقرى بالحكمة وصواب الرأى ، فوق تعمق العالم وأصالته . فقد كان ملوك المسلمين فى عصره كأكثر ملوك المسلمين فى كل عصر وزمن فى انحرافهم عن جادة الحكم الصحيح ، فلما سأله أحد الفقهاء عن (السبب فى سوء بخت المسلمين فى

---

(٥) التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا — لابن خلدون . تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجى ص ٢٤٦ و ٢٤٧ وانظر النص أيضا فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

ملوكهم اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ، ويحملهم علـى الواضحة ، بل من يفتر فى مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب فى مؤمن الا ولا ذمة ، ولا يراعى عهدا ولا حرمة) أجابه ذلك الجد الفقيه الواعى بقوله : (ان ذلك لأن الملك ليس فى شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ، قال الله تعالى ممتنا على بنى اسرائيل « وجعلكم ملوكا » ، ولم يكن ذلك فى هذه الأمة ، بل جعل لهم خلافة . قال الله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض . الآية » وقال تعالى « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » وقال سليمان « رب اغفر لى وهب لى ملكا » فجعلهم الله تعالى ملوكا ، ولم يجعل فى شرعنا الا الخلفاء ، فكان أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان لم يستخلفه نصا ، لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد ، الى سـبيل الخلافة ، الذى هو النظر والاختيار ، ونص فى ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ، فاخراج عمر لها عن نبيه الى الشورى ، دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين على بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهـوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك . ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم . فجعلها ميراثا . فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان خليفة

لا ملكا ، لأن سليمان رحمه الله تعالى ـــ رغب عن بنى أبيه ، ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه . فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة . وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قل وغالب أفعاله غير مرضية)[٦] .

وقد كان فى جد المقرى اعتداد بالنفس ، لمكانه من العلم الذى رفعه فوق ما رفعه النسب القرشى ، وكان نقيب الشرفاء بمدينة فاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له كل من فى المجلس اجلالا له حتى السلطان نفسه .. الا جد المقرى . فلما عاتبه النقيب قائلا له : أيها الفقيه ! مالك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه اكراما لجدى ولشرفى ؟ ومن أنت حتى لا تقوم ؟ أجابه أبو عبد الله المقرى جوابا حاضرا مسكتا : أما شرفى فمحقق بالعلم الذى أنا أبثه ، ولا يرتاب فيه أحد ! وأما شرفك فمظنون . ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة . ولو علمنا شرفك قطعا لأقمنا هذا من هنا ـــ وأشار الى السلطان أبى عنان ـــ وأجلسناك !!

وهنا عجز نقيب الأشراف وسكت عن الجواب ..

وقد ورث المقرى الحفيد ، صاحبنا وصاحب نفح الطيب ، هذا الاعتداد بالنفس عن جده الكبير أبى عبد الله المقرى . ولعل هذا الاعتزاز هو الذى جنى عليه فى مسألة تطليقه لزوجته القاهرية الوفائية ابنة السادات ..

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٤٧ .

بين مقرة وتلمسان

ان بلدة مقرة التى ينسب اليها آباء المقرى ، هى من أعمال قسنطينة باقليم الجزائر اليوم ، وقد انتقل منها أحد أجداده المسمى عبد الرحمن الى مدينة تلمسان بالجزائر أيضا ، فى صحبة أحد أصحاب الطريق المتصوفين ، وهو الشيخ الولى أبو مدين ، الذى دعا لهذا الجد ولأسرته بالبركة والنماء . ومقرة قرية من قرى الزاب بأفريقية أو بالمغرب الأوسط ، ويقول عنها ياقوت صاحب معجم البلدان (انها مدينة بالمغرب ، فى بر البربر ، قريبة من قلعة بنى حماد ، بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ) .

وقد اختلفت الأقوال فى ضبط نطق هذه البلدة المغربية التى اشتهرت بما أنجبته من أجداد للمقرى قبل نزوحهم منها الى تلمسان . فالعالم المؤرخ ابن مرزوق ينطقها ويكتبها بفتح الميم وسكون القاف ، ويرى ان ذلك هو صحة النطق باسمها . وقد ذكر ذلك فى كتاب له شرح فيه الألفية المشهورة لابن مالك ، كما ألف كتابا فى تاريخ جد صاحبنا عنوانه : النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى . فأكدت السجعة فى عنوان الكتاب — مرة ثانية — رأيه فى ضبط هذا الاسم .

ويرى الأكثرون ان اسم « مقرة » بفتح الميم ، وتشديد القاف ، وهى التسمية التى شاعت ، وطردت تسمية العالم ابن مرزوق ومن ذهب مذهبه . وعلى هذه التسمية ، بالفتح والتشديد ، جرى

أكثر المتأخرين ، كما جرى عليها اليوم كل المحدثين والمعاصرين ، من العرب والمستشرقين [٧] .

أما مدينة تلمسان ، فهى البلدة التى ولد بها أحمد أبو العباس المقرى صاحب نفح الطيب . ولم تكن فى الأصل دار اقامة لبيت المقرى ، بل سبقتها اليها قرية « مقرة » التى انتسبوا اليها . وكان عبد الرحمن بن أبى بكر المقرى — وهو الأب الخامس لجد المقرى — قد انتقل اليها من مقرة ، واتخذها قرارا للأسرة بعد أن كانت لمن قبله مزارا . وكان ذلك فى القرن السادس الهجرى برفقة الصوفى الأندلسى شعيب التلمسانى المشهور بأبى مدين [٨] الذى دفن بها ، ولا يزال قبره بها مزارا مشهورا ، وبيتا معمورا ، حتى ليعد قبره هناك من مفاخرها .

وقد حبت الطبيعة تلمسان بأجمل المناظر ، وخلعت عليها أفوافا من الجمال ، وامتازت برياضها النضرة ، وحدائقها المزهرة التى لم يفت واحدا من شعراء الوصف للبلدان أن يشير اليها ، كالشاعر محمد بن يوسف الثغرى ، كاتب السلطان أبى حمو الزيانى سلطان تلمسان ، الذى يقول فيها :

---

(٧) انظر «تاريخ الأدب العربى» لنيكلسون ـ الطبعة الانجليزية الثانية ١٩٣٠ . مطبعة جامعة كمبريدج . ويرسمه بالحروف اللاتينية .

(٨) الأعلام للزركلى .

قم مبصرا زمن الربيــــع المقبــل

تر ما يسر المجتنى والمجتــــــــلى

وانشق نسيم الروض مطلولا ، وما

أهداك من عرف وعرف فاقبـــل

وانظر الى زهــــر الرياض كأنه

در عــلى لبــات رباب الحــلى !

وتمش فى جنـــاتها ورياضــها

واجنح الى ذاك الجنــاح المخضل

تسليك فى دوحاتها وتلاعهـــا

نغم البلابل واطــــراد الجـدول

وكالوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب الذى مدحها قائلا :

حيـــا تلمسان الحيـــا ، فربوعها

صدف يجــود بدرها المكنــون

ما شئت من فضــل عميم ان سقى

أروى ، ومنٍّ ليس بالممنــــون

وكالامام الصوفى محمد بن خميس الذى يقول فيها من قصيدة رصينة :

فكم لى عليها من غـــدو وروحة

تساعدنى فيها المنى والمنــــائح

فطرف على تلك البساتين ســارح

وطــرف الى تلك الميادين جامــح

ظبـــــاء مغانيها عواط عــــواطف
وطير مجانيها شــــــواد صوادح

ويقول المقرى عن محل ميلاده تلمسان انها من أحسن مدائن الغرب ماء وهواء ، أما ابن مرزوق العالم المؤرخ المشهور فيقول فيها : يكفيك منها ماؤها وهواها [٩] .

ويشاء الله أن يولد أحمد أبو العباس المقرى فى تلمسان قريبا من الوقت الذى سقطت فيه فى يد الأتراك العثـمانيين الذين استولوا عليها سنة ٩٥٣ هـ ، وبقيت فى أيديهم الى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة من الهجرة ، حيث استولى عليها الفرنسيون [١٠] فى سنة ١٨٣٠ م .

ولا نعرف بالضبط التاريخ الذى ولد فيه أحمـــد المقرى بتلمسان ، فقد سكتت عن ذلك كل المراجع القديمة التى ترجمت له . أما المصادر المعاصرة فقد لجأت الى الاستنتاج فى تاريخ مولده . فالمستشرق الفرنسى ليڤى بروڤنسال يذكر فى « دائرة المعــارف الاسلامية » أنه ولد فى نحو سنة ١٠٠٠ هـ المقابلة لسنة ١٥٩٢ م . ولم يذكر لنا على أى شىء استند الى اختيار هذا التاريخ ومن أى

---

(٩) هذا الشطر عجز بيت من بيتين أوردهما المقرى فى مقدمة أزهار الرياض فى تضاعيف الكلام كأنهما له ، وهما لابن مرزوق كما يوضحه ما جاء فى نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٧ . ولولا المصادفة ما عرفنـــا أنهما لابن مرزوق ، بل ظننا كما ظن الكثيرون أنهما للمقرى نفسه ..

(١٠) الاستقصا للسلاوى ج ٤ ص ١٦٣ .

المصادر أخذه ؟ ومهما يكن من أمر فان استنتاجه هذا لم يسلم من التعليق عليه ومناقشته وعدم الأخذ به . وصاحب الفضل فى هذا هو الأستاذ محمد عبد الله عنان الذى لا يقبل هذه الرواية الفرنسية ، ويردها الى ما قبل هذا التاريخ ببضعة أعوام ، معللا ذلك بأن المقرى ذكر لنا أنه « نشأ بتلمسان الى أن رحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف » ، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ هـ — كما يقول بروفنسال — لما تحدث المقرى عن الشبيبة ، اذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط ، أعنى غلاما حدثا ، وهو ما لا ينصرف اليه الشاب . ولم يكتف الأستاذ عنان بهذا التعليل الجيد المعقول ، بل أضاف اليه تعليلا آخر ، وهو أن المقرى يشير حين حديثه عن اعتزامه التأليف عن الأندلس ، الى شبابه الذى كانت ظلاله ضافية عليه ، وهو بالمغرب قبل وفوده الى مصر سنة ١٠٢٧ هـ . ومعنى هذا انه حين قدم الى مصر كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى وربما كان يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانية أعوام ، أى حوالى سنة ٩٩٢ هـ [١١] .

وقد شك الأستاذ على أدهم فى صحة التاريخ الذى ذكره ليفى بروفنسال مولدا للمقرى ، وذهب مذهب الأستاذ عنان فى تعليله (لأن الانسان لا يقول عن نفسه وهو فى التاسعة انه فى زمن

---

(١١) تراجم أسلامية . لمحمد عبد الله عنان — ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

الشبيبة) [١٢] ولكنه لم يشر الى انه اطلع على رأى الأستاذ محمد عبد الله عنان أو استأنس به ، وان كانت الطبعة الأولى من كتاب « تراجم اسلامية » للأستاذ عنان قد ظهرت سنة ١٩٤٧ .

ولقد أوطأنا أحمد المقرى العشوة ـــ كما يقول المثل العربى ـــ حين تعمد أن لا يذكر لنا تاريخ مولده بمدينة تلمسان وهو يترجم لنفسه فى نفح الطيب . فأوقعنا من أمره فى أمر مريج .. ولعله كان فى اخفاء تاريخ مولده ، وبالتالى اخفاء سنه ، كان عاملا برأى جده أبى عبد الله محمد المقرى وذاهبا مذهبه فى التغاضى عن ذكر ذلك ، عملا بما أثر عن الامام مالك بن أنس رضى الله عنه حين ســـأله سائل عن سنه ، فأجابه متخلصا من جواب السؤال قائلا : أقبل على شأنك ! فليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه .. !

---

(١٢) مجلة الثقافة العدد ٦٣٠ يناير سنة ١٩٥١ .

بين المغرب والمشرق

لعل أول عهد المقــرى بالاغتراب عن موطنه ومحل ميلاده تلمسان ، كان فى سنة ١٠٠٩ هـ ، حيث يحدثنا عن ذلك قائلا : (وبها ـــ يعنى بتلمسان ـــ ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت ، الى أن ارتحلت عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف) [1] .

ولم يطل بمدينة فاس مقامه هذه المرة ، فقد عاد منها الى تلمسان حيث قصــد منها الى زيارة مراكش ســنة ١٠١٠ هـ . ولم تكن زيارته لمراكش الا لبضعة شهور حيث عاد منها فى أواخر العام نفسه الى تلمسان ليبدأ منها فى سنة ١٠١٣ زيارته الثانية لمدينة فاس ، التى امتد أمدها الى أربعة عشر عاما ، انتهت بتوجهه الى الشرق فى أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ .

وهذه الرحلات الى فاس ومراكش هى جولات المقرى فى المغرب ، أما جولاته فى المشرق فسنعود اليها عما قليل .

وفى خلال حديث المقرى عن رحلاته الى مدائن المغرب ، كان حريصا على أن يبرز لنا نبأ زياراته لقبور الصالحين والعــلماء

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٦٩ .

المشهورين هناك ، كما كان هذا شأنه فى زياراته لبلاد المشرق . وقد زار بمراكش قبر السهيلى مرارا ، كما زار بهـا قبر الولى العارف بالله أحمد بن العريف الأندلسى .

ولم يكشف لنا المقرى عن سبب زيارته لمراكش ، ولعلها كانت من تلك الزيارات العابرة التى لا تحدد هدف صاحبها من الاقامة والتوطن . أما رحلته الى فاس فقد سار فيها على سنن جده المشهور أبى عبد الله محمد المقرى الذى خرج من موطنه تلمسان قاصدا فاس فى أيام السلطان أبى عنان فى القرن الثامن الهجرى ، فولاه السلطان قضاء الجماعة فيها ، وبنى له المدرسة المتوكلية أعظم المدارس هناك ليقوم بالتدريس فيها . ويشير المقرى الى ذلك فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض » قائلا : (فألقيت بها ــ يعنى فاس ــ عصا التسيار ، وقاها الله من الآفات والأغيار ، واقتفيت فى ذلك سنن بعض سلفى الأخيار ، اذ كان أشهر أسلافنا الشيخ الامام ، صاحب التصانيف الشهيرة التى اقتادت المحاسن بزمام ، القاضى الأشهر ، العلامة الأظهر ، سيدى أبو عبد الله محمد ابن محمد بن أحمد المقرى القرشى التلمسانى النشأة والقبر ، أفاض الله سجال الرحمة على مثوى ذلك الجد ، انتقل اليها أيام السلطان المرحوم أبى عنان) .

وقد يكون الاقتداء بأحد الجدود فى الرحلة الى بلد سببا غير كاف عند مريد البحث والتحقيق . ولهذا استظهر بعضهم أن هناك

أسبابا سياسية حملت الرجل على هذا المحمل [٢] . ولكنهم لم يذكروا لنا هذه الأسباب . ولم يرد فى كلام القرى ما يدل على سبب تلك الرحلة غير اقتفائه سنة جده « أبو عبد الله » ، فليس هناك ما يدعو لانتحال الأسباب . أما القول بأنه رحل اليها لمشاهدة آثار الفن الأندلسى الجميل الذى كان فى فاس منه ملامح ومشابه ، فهو من باب التطوع بالقول على سبيل الافتراض والتخمين ، لا على سبيل القطع واليقين .

ولعل المقرى أراد أن يقيم فىفاس لازدحامها بالعلماء من ناحية ، وليكون قريبا من السلطان زيدان السعدى بن المنصور الذى انتقلت اليه السلطنة بوفاة والده العظيم ١٠١٢ هـ ، وان كان لم يسلم من مناوأة اخوته . ولقد كان زيدان هذا أحق أخوته المتنازعين بأن يلجأ عالم كالمقرى الى كنفه ، وأن يختار كفته . فقد كان فقيها ، وله مشاركة فى العلوم ، وتفسير للقرآن الكريم .

أما رحلة المقرى الأولى الى فاس سنة ١٠٠٩ فكانت فى عهد السلطان المنصور السعدى والد زيدان ، وقد أشار الى عرفان المنصور بالحقوق . ولا ندرى اذا كان يقصد بهذا حقوق الرعية ، أم حقوقه نحوه [٣] . وأياما كان الأمر فان اتصال المقرى بالسلطان أبى المعالى زيدان كان أقرب وأمتن من صلته بوالده المنصور .

---

(٢) أزهار الرياض : المقدمة التى كتبها المحققون ــ ص « د » .
(٣) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ .

وتبدأ رحلة المقرى الى الشرق فى أواخر رمضان سنة ١٠٢٧هـ . ويكثر التسآل بين مؤرخى المقرى المعاصرين عن أسباب هـذه الرحلة ، كما يختلف تعليلهم لها . فقد كان فى فاس يتمتع بحظوة ومنزلة ، ويحظى بالخطابة والفتوى ، ويظفر بالقرب من السلطان زيدان والافادة من مكتبته الخاصة . فما الذى حمله على ذلك والهجرة الى الشرق ؟

قد تكون الفتن والاضطرابات فى المغرب بعد وفاة المنصور ونزاع أولاده على الملك عامـلا فعالا فى اتجاه المقـرى نحو المشرق . ولما عزم المقرى على مغادرة وطنه المغرب لم يثنه عن عزمه هذا شيء ، حتى لم تؤثر فيه تلك الأبيات الثلاثة التى استشهد له بها بعض أصـحابه المغاربة من شـعر ابن خاتمة . فان القاضى أبا البركات ـــ وكان من أشياخ لسان الدين بن الخطيب ـــ لما عزم على الرحلة الى المشرق كتب اليه ابن خاتمة الشاعر الأديب يصرفه عن عزمه قائلا :

أشمس الغرب حقا ما سمعنا بأنك قد سئمت من الاقامه ؟
وانك قد عزمت عـلى طلوع الى شرق سموت به علامه ؟
لقـــد زلزلت منا كل قلب بحق الله لا تقم القيـامه !!

ولم تنفع هذه الأبيات فى صرف المقرى عن وجهته من الرحيل الى المشرق .

ولما روى المقرى قصيدة الوزير الشاعر الأديب لسان الدين ابن الخطيب التى مدح بها السلطان أبا سالم المرينى حين فتـح

تلمسان ، أشار فى تقديمه لها الى سبب ايراده اياها فى هــذا الموضع لمناســبة الحال (لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب ، الذى حير الألباب .. وللمناسبة أسباب لا تخفى على من له فكر مصيب . وكل غريب للغريب نسيب ..) [٤] .

ولعل عرضــنا لأبيات الشاهد من قصــيدة لسان الدين ابن الخطيب يكشف لنا عن هذه المناسبة التى تحمل بعض وجوه الشبه بين اغتراب الرجلين : ابن الخطيب والمقرى . فلنسمع الى لسان الدين وهو يقول :

بلادى التى فيها عقــــدت تمائمى
وجمّ بها وفرى ، وجل بها شــانى

تحدثنى عنها الشــــمال فتنثنى
وقد عرفت منى شمائل نشــوان !

وآمــل أن لا استفيق من الكرى
اذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى

تلون اخــــوانى عــلى وقد جنت
على خطوب جمـــة ذات ألوان

وما كنت أدرى قبــل أن يتنكروا
بأن خوانى كان مجمــع خوّانى !

وكانتــوقد حم القضاءــ صنائعى
علىّ بما لا أرتضى شر أعــــوان

(٤) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٦ .

فهنا يشكو ابن الخطيب من تلون الاخوان ، وتنكر الأصحاب، وخيانة من تحرموا بطعامه ، وأكلوا على خوانه ، فهل لقى المقرى فى فاس مثل هذا الذى شكا منه ابن الخطيب ؟

والذى يلفت النظر فى رحلة المقرى من المغرب الى المشرق أنه جرى فيها على سمت المواطن المستقيم ، والسياسى الحكيم الذى لا يغادر وطنه فى الخفاء ، أو يتركه على طريق التسلل .. فقد اتخذ من الحج وأداء الفريضة بالحجاز سببا لرحلته ، ثم أراد أن يزيد فى الحصافة خطوة أو خطوات . فاستأذن السلطان المغربى فى الخروج ، ولما تمهل السلطان فى الاذن له أخذ يستنجزه وعده . ولما علم صديقه المؤلف عبد العزيز الفشتالى الوزير المغربى الأديب بعزمه على الرحلة الى الحجاز بعث اليه برسالة سجلها فى موضع من كتابه نفح الطيب [٥] .

وكانت رحلة المقرى فى البحر الشامى ــ البحر الأبيض المتوسط ــ رحلة مثيرة . ويظهر انها كانت أول عهده بركوب البحار . ويظهر ان الموج كان عاليا ، والرياح كانت شديدة ، والعواصف كانت عالية . فلم تكن رحلة هادئة ، ولا سفرة بحرية مريحة ، حتى لقد أشرفت نفوس الركب فيها على التلف . وقد جمعوا الى الخوف من الغرق الخوف من مهاجمة عدو ، لاجتيازهم على عدة من بلاد الحرب التى لم تكن فى سلم مع المسلمين يومذاك . وقد صور لنا المقرى أهوال هذه الرحلة فى صورة أدبية ممتعة ،

---

(٥) جـ ٣ ص ٤٣٥ .

وان كان جرى فيها على طريقة السجع والصنعة فى البيان . وما زال الركب فى ذعر واضطراب الى أن بلغوا مصر فى سنة ١٠٢٨ هـ .

ومن مصر جعل المقرى منطلق رحلاته الى الحجاز ، والقدس ، والشام . وفى خلال هذه الرحلات كان يشتغل صاحبنا بالتدريس فى المساجد الجامعة الكبرى ، فدرس فى المسجد الحرام بمكة ، وأملى الحديث النبوى بالمدينة (بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع) ، ولازم خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة المنيفة . أما املاؤه صحيح البخارى بالمسجد الأموى بدمشق تحت قبة النسر المشهورة ، فقد عقدنا له فصلا خاصا فى هذا الكتاب .

ولفت نظرنا فى خلاصة الأثر قول صاحبها المحبى أن المقرى دخل دمشق فى أوائل شعبان سنة ١٠٣٩ . وهو واهم فى هـذا التاريخ . فالثابت من كلام المقرى نفسه [٦] فى النفح انه دخل الشام فى شعبان عام سبعة وثلاثين وألف ـــ ١٠٣٧ هـ ، ولعل الوهم تسرب الى المحبى من عبارة المقرى فى الجزء الأول من النفح صفحة ٣١ ففيها شىء من الاضطراب الذى يحتاج الى حرص من القارىء لازاحة النقاب عنه .

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ٢٦٩ .

زواج من بيت السادات وطلاق

فى القـــاهرة

هناك مؤرخ حموى دمشقى عاش قريبا من عصر المقرى وتوفى بعده بسبعين عاما ، وهو محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » . ويعد هذا الكتاب أحـــد مصادرنا عن سيرة شهاب الدين المقرى ، بالاضافة الى ما كتبه ابن معصوم صاحب « سلافة العصر » وما كتبه المقرى عن نفسه فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » . وقد ترجم المحبى للمقرى ترجمة تبلغ تسع صفحات من كتابه الذى يقع فى أربعة أجزاء كبار .

ولقد أشار المحبى الى ورود المقرى الى مصر بعد الحج فى رجب سنة ١٠٢٨ هـ وتزوجه بها من السادة الوفائية ، كما أشار فى آخر الترجمة الى انه (طلق زوجته الوفائية وأراد العود الى دمشق للتوطن بها ، ففاجأه الحمام ، قبل نيل المرام) :

ولم يزد صاحب خلاصة الأثر على هذا فيما يتصل بزواج المقرى وطلاقه .

ولا تتناول الروايات المصرية المتأخرة هذا الحادث المؤسف فى حياة المقرى بأكثر مما جاء فى خلاصة الأثر ، مع اختلاف العبارة

وعدم خروجها عن المعنى الوجيز المحدد الذى أراده المحبى ، فقد كان صاحب الخلاصة هو المصدر المعروف لدينا عن زواج المقرى وطلاقه فى القاهرة . وهو مصدر كان قريبا جدا من صاحب نفح الطيب كما رأيت . الا أن ابن معصوم ـــ أحد أعلام الأدب فى القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر ـــ لم يشر الى هذه الحادثة العارضة فى حياة المقرى أية اشارة فى خلال ترجمته للرجل ، وهى ترجمة قد نقل أكثرها عما ذكره المقرى عن نفسه فى كتابه « نفح الطيب » .

وقد تزيد الأستاذ محمد عبد الله عنان فى حكاية هذا الزواج بما يعد استنباطا من خبر صاحب الخلاصة دون استناد الى مصدر آخر ، فقال عنه : (ولكنه لم يكن زواجا موفقا ، وقد فصمت عراه ـــ كما سنرى ـــ بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة) ثم عاد بعد ذلك الى حكاية التطليق قائلا : (وكان المقرى منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حدا لتلك الحياة الزوجية الكدرة) [1] .

أما الأستاذ على أدهم فقد أشار الى حادثى زواج المقــرى وتطليقه اشارة وجيزة تكاد تكون ألفاظها ألفاظ صاحب الخلاصة بلا تزيد ، فهو يقول : (وعاد الى مصر بعد الحج ، وتزوج بها من

---

(١) تراجم اسلامية : شرقية واندلسية لمحمد عبد الله عنان . ص ٢٤٧ ، ٢٥٠ .

السادة الوفائية) ثم يقول بعد ذلك : (.. ثم طلق زوجته الوفائية وأراد العودة الى دمشق فأدركته الوفاة) [٢] .

هذه هى المصادر المصرية المتأخرة التى اهتمت بالترجمة للمقرى ترجمة وجيزة ، واهتمت بابراز حادث الزواج والطلاق فى قصد فى الرواية واعتدال لا يخرج بها عن رواية المحبى . ولكنا نجد مصدرا تونسيا معاصرا هو الأستاذ « حبيب الجنحانى » يروى هذا الحادث على طريقته فى المبالغة والتخيل فيقول : (وفى القاهرة تزوج المقرى من عائلة تتمتع بحظوة وجاه من اتصلت أسبابه بها . فقد نال شرفا عظيما فى نظر الناس اذ ذاك . ولكن هذا الزواج لم يكن موفقا ، وهذه المصاهرة لم تعد بخير على المقرى ، فتضاعفت متاعبه ، وزاد قلقه . ويبدو أنه صعب عليه الفراق ، لما يرى فيه الناس من كفران بالنعمة ، وجحود للشرف الذى أحرز عليه المصاهرة . فصبر وتصبر . ولكن سبب القلق ــ فيما يبدو ــ له أثر لا يمكن تغافله) . وقد يكون لا جديد فى هذا الكلام الذى قاله الأديب التونسى الا ما أضفاه عليه من تصوير وتجسيم . أما الجديد حقا فيما جاء به الأستاذ الجنحانى حول حادث تطليق المقرى لزوجته الوفائية فهو ما ذكره بعد هذا قائلا : (واهتزت القاهرة فى يوم من الأيام لخبر تطليق الشيخ المغربى للوفائية . ونظر لأبى العباس نظرة احتقار . وبلغ الأمر الى درجة أنه لم يبق

---

(٢) من مقال بعنوان (المقرى) فى مجلة الثقافة . العدد ٦٣٠ بقلم على أدهم .

فى القـاهرة من يسلم عليه الا رجل حـداد ، كما أخبر طلبته بالقرويين ..) .

ولا شك أن نبأ تطليق عالم مغربى مرفوع المكانة لسيدة من بيت السادات يهز المجتمع القاهرى ويثير فيه كثيرا من القيـل والقال ، ويطلق ألسنة الفارغين بالكلام ، ويجعل المحبين للسادة الوفائية ينظرون الى صاحب هذا الحادث نظرة السخط والغضب والبغضة ، فان الطلاق ـــ على ما فيه من انهاء لبعض المتاعب الزوجية ـــ هو أبغض الحلال الى الله ، علاوة على ما فى ذلك العمل الذى أقدم عليه صاحبنا المقرى من تشهير بسيدة تنتمى الى بيت عريق فى المجادة والشرف . ولكننا لا نظن أن الأمر بلغ بأهل القاهرة أن ينظروا الى المقرى العالم الفقيه الراوية المهذب نظرة احتقار ، كما يقول السيد الجنحانى . ولا نحسب أن هـذه العبارة وقعت فى كتاب وقع للأستاذ الحبيب ولم يكن من حظنا هنا فى مصر أن نقع عليه . ونظن أن هذه العبارة هى من مبالغات المؤلف وهو يصور لنا سخط المجتمع القاهرى على طريقته ..

ولا شك ان بعض الحاسدين للمقرى فى مصر قد وجدوا فى حادث تطليقه لزوجته الوفائية فرصة للغمز فى الرجل والطعن عليه والخوض فيه ، فحاولوا أن ينقصوا من قدره على الرغم من السمعة العلمية التى كان يتمتع بها فى خلال دروسه بالأزهر ، وهى سمعة يقول فيها قاضى القاهرة فى وقته : (واستبشرنا من

أنفاس معارفه بعدد دروس قد درست ، فدعونا الله تعالى أن يديم اقامته بهذه الديار نفعا للطلبة ، بل وللعلماء الأبرار) [٣].

وأغلب الظن ان سوء الحظ قد لعب دورا كبيرا فى اخفاق الحياة الزوجية بين المقرى وبين زوجته الوفائية . ولا شك أنه ما كان يرجو أن تصير به الأمور بعد الاصهار الى بيت الوفائيين الى هذا المصير الذى أقلقه وأزعجه فى أخريات حياته . فان بيت السادة الوفائية بمصر من البيوت الكبيرة التى كان يلتمس الناس من الاصهار اليهم جاها وشوكة . وكان العالم الفقيه يفد الى مصر من بلاد المغرب أو المشرق ، فاذا ما اتصل ببيت السادات بصلة من زواج أو رابطة من حماية ورعاية ارتفع جاهه وأقبل الناس والزمان عليه .. فهذا العالم الفقيه عبد الرحمن بن بكار الصفاقسى — من أهل تونس — وفد على مصر فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، وما هى الا أنه اتصل بالسيد أبى الأنوار شيخ السادة الوفائية فى عصره اتصال تقرب ، فراج حاله وزادت شوكته على أبناء جنسه من أهل المغرب ، وتردد الى الأمراء كما يذكر لنا الجبرتى المؤرخ [٤] .

وقد كان من الممكن أن تروج حال صاحبنا المقرى بعد اصهاره

---

(٣) المقرى صاحب نفح الطيب — للحبيب الجنحانى — مطبعة النهضة بتونس — ص ٥٣ .

(٤) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — طبعة لجنة البيان العربى — جـ ٤ ص ٢٥٩ .

الى بيت الوفائيين ، لو أن الرياح أتت بما تشتهى السفن .. ولكن التوفيق خالف الرجل ، وخانه الحظ فعادت عليه المصاهرة بعكس ما أراد أو ما كان يرجى له .

ومن عجب أن زواج المقرى من السيدة الوفائية قد أنجب بنتا ، وكان من الممكن أن يؤكد ميلاد هذه الطفلة فى أسباب الوئام والصلح بين الأب والأم ، ولكن الله شاء أن يختار هذه البنت لجواره الكريم وأن تكون وفاتها مقاربة أو مصاحبة لزمن وفاة والدة المقرى فى بلاد المغرب . فانفصمت بذلك العروة التى كان يمكن أن تبقى على الزواج ، وشجعت وفاتها صاحبنا على التطليق والتفريق ..

وقد عزاه أصدقاؤه فى الشام من أمثال المولى أحمد شاهين وشيخ الاسلام المفتى العمادى والأديب يحيى المحاسنى فى الخطبين ، وواسوه برسائلهم الرقيقة فى المصابين . وأشار المولى الأديب الشاعر أحمد شاهين فى تعزيته الى الخئولة الوفائية للفقيدة الصغيرة قائلا : (وأما المخدرة الصغيرة ، فالمصيبة بها كبيرة ، اذ العمومة مقرية ، والخئولة وفائية ، فهى ذات النجارين ، وحائزة الفخارين ، كأن سيدى — أعزه الله تعالى — لم يرض لها كفؤا ومهرا ، فاختار القبر أن يكون له صهرا ..) (٥) .

ولا بأس هنا — والشيء بالشيء يذكر — أن نقول كلمة صغيرة

---

(٥) نفح الطيب . ج ١ ص ٥٥٥ .

عن بيت السادات أو بيت الوفائية الذين تزوج المقرى منهم ، فهو بيت عريق عتيق يرجع الى السيد محمد وفاء الشاذلى المكنى بأبى الفضل وأبى الفتح ، وهو اذا كان من مواليد الاسكندرية سنة ٧٠٢ هـ فهو مغربى الأصل ، سلك طريق أبى الحسن الشاذلى ، ونظم الشعر الصوفى على طريقة ابن الفارض . وتزوج من بلدة أخميم من صعيد مصر وكان له فيها مريدون وأتباع كثيرون ، ثم عاد الى القاهرة فسكن الروضة على شاطىء النيل ، وأقبلت عليه الدنيا ، كما أقبل عليه الأمراء والأعيان ، واشتهر بالوعظ ، كما روى له الشعرانى كثيرا من المناقب . وقد كان حادث التطليق فى عهد خليفة السجادة الوفائية السيد أبى الاسعاد يوسف المتوفى سنة ١٠٥١ هـ [٦] .

ومن الطريف أن شيوخ هذه الأسرة الشريفة يكنون بكنى لطيفة ، فمنهم أبو الفتوحات السيد عبد الخالق السادات ، وقد تولى خلافة السجادة الوفائية فى عصر اسماعيل ، وأبو الاقبال ، وأبو التسهيل ، وأبو الاسعاد ، وأبو المكارم ، وأبو الاشراق ، وأبو الامداد ، وأبو الفضل ، وأبو المراحم ، وأبو العباس ، وأبو الفتح — أو أبو الفضل — وهو رأسهم ووالدهم ، وقد توفى بمصر سنة ٧٦٥ هـ .

ويذكرنا زواج المقرى غير الموفق من القاهرة بزواج السيد على بن عبد الله العلوى ، فقد كان والده أحد الوافدين على

---

(٦) مرآة العصر ص ١٨٦ .

مصر من توقاد ، وولد هو بمصر سنة ١١٧٣ هـ ، وشاء حظه النكد أن يوقعه فى الزواج بامرأة قاهرية كانت تؤذيه وتشتمه ، وربما كانت تضربه ، وهو صابر عليها مقبل على شأنه [٧] . وقد كان الرجل من أجلاء العلماء بمصر فى القرن الثانى عشر الهجرى . وعجيب أن تتسرب أسرار البيوت وخصوصياتها وما يجرى بين جدرانها الأربعة بهذه الصورة وتصبح حديثا يرويه المؤرخون! ومن حسن حظ المقرى أن الألسنة ما كانت تلوك ما يجرى بينه وبين زوجه من خلاف ..

على أن المسألة لا تعدو أن تكون من باب الحظوظ التى لا حيلة للمرء فيها ، ولا قدرة له على تصريفها أو تعديلها بما يلائم منفعته . فهناك علماء وفدوا على مصر وتزوجوا منها ، ورزقوا السعادة والتوفيق فى زواجهم . فهذا الشيخ أبو الحسن المغربى شيخ رواق المغاربة بالأزهر فى وقته ، قدم الى مصر فى سنة ١١٥٤ هـ ، واتصل بوالد مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى واتحد به ، وزوجه زوجة مملوكه مصطفى بعد وفاته ، فدام زواجهما قرابة أربعين عاما .

على أن طول مدة الزواج قد لا يعنى السعادة فيه والتوفيق معه . بل قد يعنى الصبر من أحد الجانبين — أو منهما معا — على معاناته . ولكن العبرة بما يحسه كل من الزوجين نحو صاحبه فى حالتى الوجود والفقدان على السواء . فهذا العالم المتفنن

---

(٧) عجائب الآثار ــ ج ٣ ص ٣٠٥ .

الواسع الثقافة السيد مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس فى شرح القاموس » ولد باليمن سنة ١١٤٥ هـ ، ونشأ بها ، ووفد الى مصر بعد أنشوقه الشيخ عبد الرحمن العيدروس الى دخولها ، بما وصف له من علمائها وأدبائها وأمرائها وما فيها من كريم المشاهد .. فدخلها . وهنا حسنت حاله ، وتردد الأمراء والكبراء على داره ، وحضروا مجالس درسه ، وأتحفوه بالهدايا ، وكاتبه ملوك النواحى من الترك والحجاز والهند واليمن والشام والعراق والسودان والمغرب . وتزوج سيدة قاهرية اسمها « زبيدة » ، فأضفى الله عليهما من التوفيق وألقى بينهما من المحبة والمودة والتراحم ما كان مضرب الأمثال ، فلما ماتت فى سنة ١١٩٦ هـ حزن عليها حزنا شديدا ، ودفنها قرب مشهد السيدة رقية ، ونصب على قبرها مقاما ومقصورة ، وعمل ستورا وفرشا وقناديل ، ولازم قبرها أياما كثيرة ، وجمع لها القراء والمنشدين ، وتقبل فيها عزاء المعزين وسمع مراثى الشعراء فى بيت صغير أقامه بجوار قبرها ، وأجازهم على قصائدهم .. ورثاها بقصائد وجدها الجبرتى المؤرخ بخطه بعد وفاته فى أوراقه المدشتة ، وروى بعضها فى تاريخه . ولا بأس هنا من ايراد أبيات منها على سبيل المثال لشعر الأوفياء لزوجاتهم :

خليلى هل ذكر الأحبة نافع

فقد خاننى الصبر الجميل العواقب

وهل لى عود فى الحمى أم تراجع
لوصل بتلك الآنسات الكواعب
لقد رحلت عنى الحبيبة غدوة
وسارت الى بيت بأعلى السباسب
أقول وما يدرى أناس غدوا بها
الى اللحد: ماذا أدرجوا فى السبائب[٨]؟
تأخرت عنها فى المسير .. وليتنى
تقدمت لا ألوى على خرق نادب[٩]!

لشد ما كنا نروم أن نسمع شعرا مثل هذا للمقرى فى زوجته الوفائية ، ولكنه بعد حادث تطليقه اياها سمعناه يقول فى تحسر على حاله هذه الأبيات :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسى عفتها بالذل فيها وقلت لها : عن العلياء صومى
ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصومى[١٠]

---

(٨) كانت فى الجبرتى ، وحلية البشر للبيطار : السباسب ، ولا معنى لها هنا . وصوابها : السبائب : جمع سبيبة وهى الشقيقة الرقيقة من الكتان والمقصود بها لفائف الكفن .
(٩) حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر . لعبد الرزاق البيطار . ج ٣ ص ١٥٠٢ .
(١٠) هكذا رواها المحبى فى خلاصة الأثر . وهى كروايات المحبى المضطربة . وصورتها الصحيحة فى النفح ج ١ ص ٤٠ .

بين دمشق والقاهرة

دخل أبو العباس المقرى القاهرة سنة ١٠٢٧ هـ بعد رحيله من المغرب . وقد بدأ منذ ذلك التاريخ زياراته للحجاز والقدس . أما الشام فلم يتجه عزمه اليها الا فى سنة ١٠٣٧ ، أى بعد عشرة أعوام من اقامته فى القاهرة .

وقد أحب المقرى دمشق منذ حط بها رحاله للزيارة ، ووصفها بأنها (المدينة التى ظهر فضلها وبان ، دمشق الشام ، ذات الحسن والبهاء والاحتشام ، والأدواح المتنوعة ، والأرواح المتضوعة ، حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة ، والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه ، والأظلال الوريفة والأفنان الوريقة ، والزهر الذى تخاله مبسما والندى ريقه ! والقضبان الملد ، التى تشوق رائيها بجنة الخلد :

بحيث الروض وضاح الثنايا   أنيق الحسن مصقول الأديم

وهى المدينة المستولية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تزيد على مر الزمان طلاوة
دمشق التى راقت بحلو المشارب
لها فى أقاليم البلاد مشارق
منزهة أقمارها عن مغارب

وقد دخل أبو العباس المقرى قبل دمشق بلدانا كثيرة فى المغرب والمشرق ، فدخل مراكش ، وفاس ، ومصر ، والحجاز ، والقدس ولكنه لم يلق ارتياحا الا فى دمشق كما يقول لنا فى « النفح » فى موضع بعيد جدا عن مقدمة الكتاب [1] . ولعل ايراد عبارته هنا يكون أصدق فى التدليل على شدة حبه وكثرة تعلقه بهذه العاصمة الاسلامية العربية الكبرى التى شهدت عز الاسلام ومجده فى أيامه الأولى ، فقد نقل المقرى عن ابن جبير الرحالة الأندلسى المشهور كلاما له جيدا فى وصف دمشق وذكر محاسنها ، وكأن المقرى لم يجد مدح ابن جبير لعاصمة الأمويين كافيا ، فعلق عليه قائلا : (كل ما ذكر ـــ يعنى ابن جبير ـــ رحمه الله تعالى فى وصف دمشق الشام وأهلها فهو فى نفس الأمر يسير . ومن ذا يروم عن محاسنها التى اذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير . وقد أطنب الناس فيها وما بقى أكثر مما ذكروه . وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، وأقمت بها الى أوائل شوال من السنة ، وارتحلت عنها الى مصر ، وقد تركت القلب فيها رهنا ، وملك هواها منى فكرا وذهنا ، فكأنها بلدى التى بها ربيت ، وقرارى الذى لى به أهل وبيت ، لأن أهلها عاملونى بما ليس لى بشكره يدان ، وهأنذا الى هـــذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان ، ولا يشوقنى ذكر أرض بابل ولا بغدان ، فالله سبحانه وتعالى يعطر منها بالعافية الأردان) .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥١١ .

والانسان حر فى أن يحب من بلاد الله ما يشاء ، ولكن ماسر كلف المقرى بدمشق الى هذا الحد مع انه لم يقم فيها الا شهرا وبعض شهر ؟ ان المقرى نفسه فى النص السابق الذى نقلناه عنه يتولى الجواب عن هذا السؤال بما لا مجال فيه للزيادة عليه . فقد عامله أهلها بما لا ينهض بشكره ، كأنها بلده وقراره . ولكن هل ضنت عليه القاهرة بما كان يرجوه من الترحيب ويأمله من التأهيل ؟

الواقع أن الله هيأ للمقرى فى دمشق أديبا وشاعرا نبيلا كريما هو أحمد شاهين القبرسى الأصل ، الدمشقى المولد ، وقد جمع هذا الرجل الى الأدب والشعر الجود والمروءة . فلما نزل المقرى بمنزل المغاربة بدمشق . وكان غير لائق بفضله وعلمه ، وعلم أحمد شاهين بهذا ، أنزله فى المدرسة الجقمقية ، واعتنى به اعتناء زائدا .. وأرسل اليه بهدية وخمسين قرشا — من قروش ذلك الزمان المبارك الرخى ! — وكتب اليه معتذرا من قلة الهدية والعطية بيتين من الشعر هما :

لو كان لى أمر الشباب خلعته

بردا على عطفيك ذا أردان !

لكن تعذر بعث أول غايتى

فبعثت نحوك غاية الامكان

وقد وطأ أحمد شاهين لأحمد أبى العباس المقرى أكناف

الاقامة فى دمشق ، وسهر على رعايته وراحته ، وجمع له أدباء الشام وشعراءه فى ذلك الوقت ، فالتفوا حوله ، وسمعوا اليه ، ورووا عنه ، وطارحوه الشعر وطارحهم . ولم يجد له فى دمشق منافسا يخشاه ، مع عادة العلماء من التنافس بعضهم على بعض . فقد لقى من ذلك كثيرا فى مراكش وفاس وتلمسان . ولعله لقى مثله فى مصر ، ولهذا يكرر مدح الدمشقيين بقوله فى موضع آخر من النفح : (فهم الذين نوَهوا بقدرى الخامل ، وظنوا — مع نقصى — أن بحر معرفتى وافر كامل ، حسبما اقتضاه طبعهم العالى ، فلو شريت بعمرى ساعة ذهبت من عيشى معهم ما كان بالغالى) [٢] .

ولم نقع على نص يكشف لنا عن سوء علاقات المقرى مع علماء مصر فى وقته ، وان كان الرجل ظريف الحديث ، حلو المجالس ، مألوف العشرة . الا أن حادث طلاقه لزوجته الوفائية قد أثر بلا ريب فى نظرته الى القاهرة ، أو أثر فى نظرة أهل القاهرة اليه . فلا شك أنهم سخطوا لما صنع . ولعل هذا مما جعله لا يود العيش فى مصر أطول مما عاش ، وجعله ينوى العودة الى دمشق ليقيم فيها .

لقد استقبلت دمشق صاحبنا المقرى بمظاهرة حماسية لم يعهد مثلها فيما دخل من بلدان ، وودعته بمظاهرة معبرة عن ألمها لفراقه ، وتمنيها لعودته . ومثل هذا اللقاء والوداع كفيل أن

---

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥ .

يكيف حكم الرجل على البلاد ، والتفضيل بينها ، والاشادة بحبها . وهذا ما فعله المقرى ، فقد أسلفت اليه دمشق دينا رأى أن يؤدى بشكرها وذكرها والاعجاب بها ، والاشادة بمحاسنها ..

على أن محاسن دمشق لم تنس المقرى محاسن القاهرة « التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع » [3] ، فقد روى كثيرا من الشعر الذى قيل فى محاسنها ، ونيلها ، بل قيل فى أهلها .. كالصفدى الذى يقول :

سقيا لمصر وما حوت   من أنسها وأناسها

وقد كان من الممكن بعد عودة المقرى الى القاهرة من دمشق أن يكتفى فى تصنيف « النفح » بالشعر الذى رواه فى مقدمة الكتاب مما قاله الشعراء مدحا لمصر ووصفا لمحاسنها . ولكن الرجل منصف وفى ، فلم تغط محاسن الشام على بصره ، وتجعله ينكر أو يهمل الشعر الذى قيل فى أهل مصر ، وخاصة من شعراء عادوا الى القاهرة بعد زيارتهم للشام ، أى أن ظروفهم مثل ظروفه . ونرى الرجل هنا يروى هذا الشعر بعد حديثه عن دمشق بمناسبة حديثه عن رحلة ابن جبير الى الشام . ومما رواه قول الأديب محمد بن يوسف بن الخياط حين عاد الى القاهرة من الشام سنة ٧٣٣ هـ :

---

(٣) النفح جـ ١ ص ٢٠ .

خلفت بالشـــام حبيبى وقد يممت مصرا لعنـــا طارق
والأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر عـلى العاشق !

وقوله أيضا :

يا أهل مصر أنتمـــو للعـلا كواكب الاحســان والفضل
لو لم تكونوا لى سـعودا لما وافيتكم أضرب فى الرمـل !

ولا يكتفى المقرى برواية هذا الشعر الذى يمدح أهل مصر وناسها ، بل يعقب على روايته قائلا : (وذكرته برمته لحسن مغزاه ..) [٤] .

ولكن المفاضلة بين العاصمتين عند الشعراء الذين يفضلون هذا البلد على ذاك قد جرت أبا العباس المقرى الى ايراد شعر من هذا اللون ، كالبيتين اللذين رواهما للعز الموصلى ، وهما :

اليك حياض حمـامات مصر ولا تتكثرى عنـــدى بمين !
حياض الشام أحلى منك ماء وأطهـر وهى دون القلتين !

ولكن العز الموصلى لم يقل هذا الكلام الا دفاعا عن الشام وردا على الشاعر المصرى ابن نباتة القائل :

أحواض حمـــــــام الشآ م ألا اســـمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحواض مصـــ ر فأنت دون القلتـــين .. !

وهكذا كان الشر بالشر ، والبادى أظلم !!

---

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٥١٣ .

ولم يسكت المقرى فى ايراده لهذه المفاضلات والمفاخرات بين دمشق ومصر ، ولم يلزم جانب الحيدة ، بل كان يعلق أحيانا بما يدل على هواه وميله نحو دمشق ، فلما روى قول النواجى الأديب الشاعر المصرى :

مصر قالت : دمشق لا تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها ..

علق عليه قائلا انه من باب تفضيل الوطن من حبه .. ولم يكتف بهذا بل صرح بذكر شيوع الخلاف قديما وحديثا فى المفاضلة بين مصر والشام [٥] . وهنا وقف موقف المحامى المدافع عن دمشق فى صراحة وتحمس . فلما روى قول بعضهم :

تجنب دمشق ولا تأتها وان راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق بها قائم وفجر الفجور بها طالع

علق عليه قائلا : (فلا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه ، اذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل ، وهى من نزعات بعض الهجائين الذين يعمدون الى تقبيح الحسن الجميل . وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ، ولا يقابل ألف مثن عدل بفاسق يقدح ..) .

ومن ظرف المقرى وخفة روحه وسماحة نفسه انه روى عقب هذا شعرا لبعض الأندلسيين — وهو أبو بكر محمد بن قاسم — يصف رياضها بالجنة ، وأنهارها بالبسمة ، ووجوه أهلها بالقطوب ، فيقول :

---

(٥) المصدر نفسه ص ٥١٩ .

دمشق جنة الدنيـــا حقيقا ولكن ليس تصـلح للغريب
بها قوم لهم عـــدد ومجد وصحبتهم تؤول الى الحروب!
ترى أنهارهم ذات ابتســـام وأوجههم تولع بالقطـــوب
أقمت بدارهم ســـتين يوما فلم أظفر بها بفتى أديب .. !

ولكن المقرى يعلق على هذا الشعر الهجائى فى دمشق قائلا : (والجواب واحد ، ولا يضر الحق الثابت انكار الجاحد) وقوله : والجواب واحد يشير به الى جوابه عن هجاء الشاعر الذى قبله ..

ولا ينقطع هنا نفس المقرى فى رواية ما قيل من شعر فى المفاخرة بين العاصمتين الحبيبتين ، ولكن أمانة الرجل فى الرواية من ناحية ، وخفة روحه وذوقه من ناحية أخرى يقتضيانه أن يروى الشعر الأخف محملا فى هجــاء دمشق ، كقول القاضى المصرى محيى الدين بن عبد الظاهر :

لا تلوموا دمشق ان جئتمـــوها
فهى قد أوضـــحت لـكم ما لديها !
انها فى الوجوه تضحك بالزهـــ
ـر لمن جاء فى الربيـــع اليهـــا
وتراها بالثلج تبصق فى لحـــــ
ـية من مر فى الشـــتاء عليها !!

هذا هو موقف أبى العباس أحمد المقرى من القــاهرة التى آوته ، ومن دمشق التى كرمته حين استقبلته ، وقد حفظ الرجل

للقاهرة فضلها ، كما حفظ لدمشق رعايتها له ، ولقاءها اياه ، وحفاوة أنديتها ومجالس سمرها به . وعلى الرغم من الجرح الذى أصيب به فى حادث تطليقه بالقاهرة فانه لم ينكر لها فضلا ، ولم يجحد لها مزية ، بل رأى الاكتفاء بالانطواء على جراحه من التطليق ووفاة ابنته الطفلة وانعزاله عن المجتمع القاهرى ، واتجه الى دمشق بفكره ينوى العودة اليها « للتوطن بها » كما يذكر صاحب خلاصة الأثر [٦] . ولسان حاله ـــ كما يقول ـــ ينشد قول بعض الأكابر [٧] :

نحن فى مصر رهن شـوق اليكم
هل لكم بالشـآم شوق الينا ؟
فعجـزنا عن أن ترونا لديكم
وأبيتم عن أن نراكم لدينـا !
حفظ الله عهد من حفظ العهـ
ـد ، ووفى به كما قد وفينـا

(٦) خلاصة الأثر ــ جـ ١ ص ٣١١ .
(٧) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٦٥ .

شيوخه وروايته عن عمه

يحدثنا المقرى فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض » عن نبذة من أيام شبابه الأول فى مدينة تلمسان التى ولد فيها ، وعن مجالس الدرس والرواية التى كان يتردد عليها ، ويلازمها ، وعن عهد نسخ الكتب وتحبير الأوراق ، فيقول فى عبارته المسجوعة : (وقطعنا نبذة من الشباب ، فى مواطن الأحباب ، ما بين دراسة ودراية ورواية ، وممارسة أمور تبعد عن طريق الغواية ، وتحبير طروس ، وملازمة دروس ، ومثول بين يدى أشياخ مجالستهم نامية الغروس ، وخصوصا شيخهم الذى فضله لا يفتقر الى دلاله ، عمنا مفتيها سيدى سعيد بن أحمد المقرى شكر الله خلاله) .

ولقد حرص المقرى فى هذه الحقبة من شبابه أن يحفظ كل ما يستطيع حفظه من أمهات كتب الدين والحديث ، وأن يقرأ كثيرا من كتب التاريخ والأدب ، فقد كان على اهتمامه بمسائل الفقه والدين نزاعا الى الأدب والأخبار والأشعار . ولا يمكن أن نخصص له اتجاها معينا فى الدراسة والرواية والقراءة ، فقد كان يقرأ كل كتاب يقع له ، بل كان يسعى الى الكتب فى أماكنها ، كما سعى جاهدا الى مكتبة السلطان زيدان الخاصة يعل منها وينهل .

وما سمع المقرى بعالم أو شيخ يفيد منه ويروى عنه الا سعى اليه وأفاد منه . واذا كانت مدينة تلمسان فى ذلك العهد تزدحم بحفنة كبيرة من العلماء الرواة ، فان المقرى لم يقصر همه عليها ، ولم يكسر نشاطه العلمى على شيوخها وعلمائها ، فقد شد الرحال الى فاس سنة ١٠٠٩ فى أول عهده بالشباب ، ورجع الى تلمسان ، ثم عاد الى فاس مرة ثانية سنة ١٠١٣ ، وهى العودة التى بقى بها فى هذه العاصمة أربعة عشر عاما ، حتى ارتحل الى المشرق سنة ١٠٢٧ هـ .

وفى مدينة فاس لم ينقطع صاحبنا عن الأخذ والتلقى عن علمائها ومحدثيها ورواتها ، وهناك اتصل بمفتيها الشيخ أبى عبد الله محمد بن قاسم القيسى المشهور بالقصار ، وروى عنه بعض أحاديث النبى عليه السلام ، ومنها الحديث النبوى : (من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، معه قوت يومه فكأنما سيقت له الدنيا بحذافيرها) .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة قصيرة عند الشيخ القصار فهو نموذج من علماء المغرب فى القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، وقد توفى سنة ١٠١٣ هـ — أى بعد اتصال المقرى به بأربع سنوات ، ولا يعلم تاريخ مولده . وكان القصار من جماعة العلماء الذين اجتمعوا فى مدينة فاس بعد وفاة السلطان المنصور وعقب دفنه مباشرة لأخذ البيعة لولده أبى المعالى زيدان سنة ١٠١٢ هـ . وكان المنصور — سلطان المغرب العظيم —

قد عهد بالبيعة قبل وفاته الى واحد من أبنائه الثلاثة : وهــو « الشيخ » الذى لم تصلح سيرته .

ولقد ذهب القصار والقاضى ابن أبى النعيم ـــ قاضى الجماعة بفاس ـــ فى الدعوة الى زيدان بن المنصور الى أقصى حد ، حتى لقد أجازا بفتوى صدرت منهما قتال أخيه الآخر أبى فارس الذى خرج عليه ، استنادا الى حديث نبوى (١) .

ولقى الشيخ القصار من هذه البيعة لزيدان ، والفتوى ضد أبى فارس عنتا كبيرا عــلى الرغم من كبر ســنه ، فلما استبد « الشيخ » بالأمر وانفرد بالسلطة مع وجود السلطان زيدان ، استدعى القصار وشريكه فى الفتوى القاضى ابن أبى النعيم ، ولامهما على مبايعة زيدان وتنحية أخويه ، وعزم « الشيخ » على أن ينكل بهما ، ولكن الله أراح القصار فاختاره الى جواره وهو فى طريقه الى التعذيب ..

وقد تولى القصار الخطابة والافتاء فى فاس زمنا ، ولكنه لم يسلم ، على عادة أبناء الزمان ، من الحسد عليه ، والسعى به عند السلطان ، فقد سعى به تلميذه أبو الحسن بن عمران السلاسى حتى زحزحه عن الخطابة والفتوى ، وتولاهما مكانه زمنا يسيرا ، حيث أعيد القصار الى منصبه (٢) .

---

(١) الاستقصا للسلاوى ج ٦ ص ٤ .
(٢) الاستقصا ج ٦ ص ١٤ .

وكان المقرى يجل شيخه أبا عبد الله القصار ، كما كان يجل شيخا له آخر هو أحمد بابا التنبكتى الفقيه السودانى المشهور وصاحب كتاب « نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج » فى تراجم رجال المالكية . وقد التقى المقرى بأحمد بابا التنبكتى فى مدينة فاس حيث أوى اليها هذا المكافح الأفريقى الذى عارض فى احتلال المراكشيين لبلدته تنبكت أو تمبكتو ـــ كما نسميها اليوم ـــ بغرب أفريقية . وقد كانت اقامة أحمد بابا بفاس بعد أن ظل معتقلا فى مدينة مراكش الى سنة ١٠٠٤ . وهنا اختار المقام بمدينة فاس مبعدا عن وطنه الى أن أذن له بالعودة اليه سنة ١٠١٤ هـ .

ولا شك أن لقاء المقرى مع أحمد بابا التنبكتى كان فيما بين سنتى ١٠٠٩ ، و ١٠١٤ هـ ، لأن أول عهد ارتحال المقرى الى فاس كان سنة ١٠٠٩ هـ . ولا شك أن لقاءهما كان فى فاس ، ولم يكن فى مراكش لأن أحمد بابا ترك مراكش سنة ١٠٠٤ .

وكان أحمد بابا التنبكتى طرازا نادرا من علماء أفريقية الغربية ، بل من علماء المغرب ، بل من علماء الاسلام ، ويقول أبو عبد الله المراكشى فى ترجمته له بكتابه المسمى الفهرست : (كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والادراك التام الحسن ، حسن التصنيف ، كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية وأصلين وتاريخا) [٣] .

---

(٣) خلاصة الأثر جـ ١ ص ١٧١ .

وما ذكر المقرى شيخه أحمد بابا التنبكتى فى رواية خبر عنه ، أو نقل رأى له الا خصه بعبارات التقدير ، ودوام الدعاء له . فحين أشار الى رأيه فى الامام المجدد ، وهل يكون من العلماء ، أو من الأولياء ، أو من الملوك قال عنه : (وسمعت شيخنا الامام ، بقية الناس ، سيدى أحمد بابا السودانى التنبكتى ، أبقى الله جلاله ، وأدام عزته وحفظ خلاله يقول : ان ذلك يكون فى كل قطر بحسبه ، وليس من شرطه أن يعم الدنيا أو غالبها) [٤] .

وفى موضع آخر من « أزهار الرياض » يذكر المقرى شيخه أحمد بابا التنبكتى ناقلا بعض النصوص عنه ، قائلا : (وقد نقلها شيخنا الامام سيدى أحمد بابا ، أبقاه الله ، فى تكميله لديباج ابن فرحون) [٥] .

هذان اثنان من شيوخ المقرى فى المغرب ، ولابد أن نضيف اليهما شيخا ثالثا أفاد منه المقرى كثيرا وتعلم عليه وتتلمذ له ، وهو عمه الشيخ سعيد بن أحمد المقرى مفتى فاس .

وندع أحمد المقرى يصف لنا عمه سعيدا بقوله : (فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم عن غير كلاله ، وعمروا ربوع المجد وتفيأوا ظلاله ، وأرشدوا الى سبل الهدى وأزاحوا عن الضلالة ، وعمرت أرضهم بكل مجد وجلالة) .

---

(٤) أزهار الرياض ج ٣ ص ٥٦ .
(٥) صفحة ٣٧ من الأزهار .

وفى أزهار الرياض ونفح الطيب يروى أحمد المقرى عن عمه الشيخ سعيد بعض الأخبار والأشعار . فهو يتذاكر معه فى طرائف الأدب ، كما يتناقش معه فى مسائل العلم . وقد تذاكر معه مرة ـــ من تلك المرار التى كان يجلس فيها اليه ـــ مسألة وجوب اخفاء المرء سنه عن الناس لمنافاة ذلك للمـــروءة . فقـــد كان أبو عبد الله جد المقرى يعلم تاريخ مولده بتلمسان . ولكنه رأى أن يغفل ذكره . وأن يصفح عنه فى اعلام الناس به . وروى جد المقرى لتأييد وجهة نظره فى اخفاء المرء لسنه هذا الخبر الذى نورده هنا لطرافته . فقد كنا نعلم ان المرأة دائما هى التى تخفى سنها ، وتستر عمرها ، حتى يظل الناس دائما فى عماية من أمرها .. وحتى لا تبدى عوارها بكبر سنها .. ولكن هذا الخبر الذى رواه جد صاحبنا المقرى يؤكد لنا ان الرجال ، بل الأئمة الأعلام يخفون أمر سنهم ، وتواريخ ميلادهم .. !

قال جد المقرى : (كان مولدى بتلمسان .. وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكنى رأيت الصفح عنه ، لأن أبا الحسن بن مؤمن ، سأل أبا طاهر السلفى عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ـــ يعنى انه فر من الجواب على السؤال ـــ فانى سألت أبا الفتح بن زيان عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ! ، فانى سألت على بن محمد اللبان عن سنه ، فقال : أقبل على شأنك ! وما تزال الرواية والسند يرتفع حتى يصل الى بعض أصحاب الامام الشافعى الذى يقول ؛ فانى سألت الشافعى عن سنه فقال : أقبل على شأنك ! فانى سألت

مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شأنك ، فليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه ..) [٦] . وهنا لا يكتفى المقرى الحفيد برواية هذا الخبر عن جده الشيخ أبى عبد الله ، بل يزيد عليه بيتين فى هذا المعنى أنشدهما اياه عمه الشيخ سعيد . وندع المقرى يروى الخبر قائلا : (ولما تذاكرت مع مولاى العم الامام ، صب الله تعالى على مضجعه من الرحمة والغمام ، هذا المعنى الذى ساقه مولاى الجد رحمه الله تعالى ، أنشدنى لبعضهم :

احفظ لسـانك لا تبح بثـلاثة
سن ، ومال ـــ ما استطعت ـــ ومذهب

فعلى الثـلاثة تبتـلى بثلاثة
بمكفر ، وبحاسـد ، ومكذب !)

ويروى المقرى صاحب نفح الطيب عن أستاذه وشيخه وعمه الشيخ سعيد المقرى بعض الشعر ، كمثل ذلك الشعر الذى نظمه « الواسطى » فى مدح مجد الدين الفيروز أبادى صاحب « القاموس المحيط » . وقد روى المقرى هذا الشعر فى كتابه « أزهار الرياض » [٧] ، وذكر عمه ووصفه بأوصاف التقدير والاجلال قائلا : (وأنشدنا فيه لغيره ، سيدنا ومولانا شيخ الشيوخ ، وخاتمة أهل التثبت والرسوخ ، ملحق الأحفاد

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١١١ .
(٧) الجزء الثالث ص ٤٧ .

بالأجداد ، المبرز على النظراء والأنداد ، مفتى تلمسان وأصقاعها ، ومعتمد أهل أقطارها وبقاعها ، عمنا سيدى سعيد بن أحمد المقرى ، صب الله عليه شآبيب رضوانه ..) .

وقد كانت المذاكرات الشعرية وروايتها متبادلة بين المقرى وعمه ، فالعم يروى أكثر الأحيان ، وابن الأخ يروى بعض الحين ، والعم الأستاذ والمعلم يهتز وينفعل لما يرويه ابن أخيه من شعر ، كما يحدثنا المقرى قائلا : (وقد كنت رأيت بتلمسان تخميسا لبعض الأكابر على قصيدة سيدى ابراهيم هذه ، وأنشدته الشيخ مولانا العم ، شيخ الاسلام ، سيدى سعيد بن أحمد المقرى ، رضوان الله عليه ، فانفعل لذلك غاية واهتز !) [٨] .

ويظهر ان الاهتزاز والانفعال بالشعر الجيد هما من مواريث أسرة المقرى ، التى كان يجمع أفرادها المعروفون بين الفقه والدين من ناحية ، وبين التذوق الأدبى من ناحية أخرى .

ولن نمضى أكثر من هذا فى ذكر المواطن من مؤلفات المقرى ذكر فيها انه نقل عن عمه أو روى عنه ، أو سمع منه أنشادا أو أنشد له ، فتلك سبيل تطول .. ولكننا نكتفى فى ختام هذا الفصل بذكر بيت من اجازة علمية للمقرى ، يشير فيها الى انه أخذ صحيح البخارى عن عمه سعيد :

وقد أخـذت جامع البخارى   عن عمى الحائز للفخـار

(٨) أزهار الرياض ــ ج ٢ ص ٣٠٩ .

منح الإجازات العلمية

والتتلمذ عليـــه

قبل أن نتحدث عن الاجازات العلمية التى كان يمنحها أحمد المقرى تلاميذه فى الغرب والشرق ، أو كانوا يطلبونها منه يجدر بنا أن نمهد بين يدى الموضوع بكلمة عن الأصل فى هذه الاجازات .

وقد تناول العالم الشيعى الشيخ أغا بزرك ـــ وهو من علماء النجف المعاصرين ـــ موضوع الاجـازة فى جزء من موسوعته الكبيرة التى عنوانها « الذريعة الى تصانيف الشيعة » . وفيها يسجل أقدم اجازة علمية ـــ وفق ما رآه هو ـــ صدرت فى سنة ٣٠٤ هـ من العالم محمد بن عبد الله بن جعفر الحميرى ، الى أبى عامر سعيد بن عمرو . وفى هذه الاجازة يطلق الأستاذ لتلميذه أن يروى عنه كتابه . أى أنه أجاز له أن يروى عنه هذا الكتاب[١].

وقد كان يظن أن هذه الاجازة العلمية هى أقدم ما وصـــل الينا . ولكن علامة الشام الأستاذ الامام المفسر الشيخ محمـــد جمال الدين القاسمى قد سبق الى تسجيل أقدم اجازة عثر عليها ،

---

(١) تاريخ التربيـــة الاسلامية ـ للدكتور أحمد شلبى ـ ص ٢٤٩ .

وقد نقلها عن شرح ألفية العراقى نقلا عن الامام أبى الحسن محمد ابن ابى الحسين الوزان . وهى اجازة من ابن أبى خيثمة الحافظ المؤرخ الى تلميذه أبى زكريا يحيى بن مسلمة يقول فيها : (قد أجزت لأبى زكريا يحيى بن مسلمة أن يروى عنى ما أحب من كتاب التاريخ الذى سمعه منى أبو محمد القاسم بن الأصبغ ، ومحمد بن عبد الأعلى ، كما سمعاه منى . وأذنت له فى ذلك ، ولمن أحب من أصحابه . فان أحب أن تكون الاجازة لأحد بعد هذا ، فأنا أجزت له ذلك بكتابى هذا) . ثم وقع الشيخ ابن أبى خيثمة هذه الاجازة المكتوبة وسجل تاريخها فى شوال من سنة ست وسبعين ومائتين ..

وهكذا ترى قدم تاريخ هذه الاجازة وسبقها على تاريخ اجازة محمد بن عبد الله بن جعفر ببضعة وعشرين عاما .

والاجازة مشتقة من الجواز ، أو التجوز ، وهو التعدى وتجاوز الشىء . فكأن الشيخ أو الأستاذ عدى روايته حتى أوصلها للراوى عنه ، وهو فى هذه الحالة تلميذه .

وقد حدد ابن فارس اللغوى معنى الاجازة من وجهة نظر اللغة فى كتابه الخاص بالمصطلح قائلا : (يعنى بالاجازة فى كلام العرب ، مأخوذ من جواز الماء الذى يسقاه المال ، من الماشية والحرث . يقال منه : استجزت فلانا فأجازنى ، اذا أسقاك ماء

لأرضك أو ماشيتك .. كذلك طالب العلم ؛ يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه اياه . فالطالب مستجيز ، والعالم مجيز) [٢] .

وقد كانت « الاجازة » أولا فى الحديث النبوى . صيانة له ، وتحرزا من وقوع الخلط فيه ، وحدا لكل مجترىء على الخوض فيه بلا علم . وكان طالب الحديث لا تتم له رواية الحديث الا باجازة شيخه . وتوسع الشيوخ والعلماء فى الاجازات فمنحوها لكل طالب الرواية فى الفقه والتاريخ والسير والأدب والشعر وغيرها من سائر العلوم والفنون .

وقد كان الشيوخ يكتبون لتلاميذهم ما يفيد بأنهم — أى التلاميذ — أتموا قراءة الكتاب عليهم ، وبهذا يجيزونهم للتدريس والرواية عنهم . وكثيرا ما كان الطلاب يطلبون من شيوخهم أن يجيزوهم . وكان هذا الطلب يسمى استجازة .

وسنجد فى تاريخ المقرى انه كان يمنح تلاميذه فى المغرب وفى المشرق هذه الاجازات عنه ، وخاصة فى رواية الحديث . كما كان التلاميذ يستجيزونه فيجيزهم . وقد روى لنا المقرى صورا من هذه الاستجازات التى كان يكتبها أصحابها بالشعر لا بالنثر . وقد لجأ طلبة العلم الى استعمال الاستجازات الشعرية منذ القرن الرابع الهجرى . كما لجأ الشيوخ والأساتذة أنفسهم الى كتابة الاجازة شعرا ، وذلك ردا على الاستجازة الشعرية ،

---

(٢) قواعد التحديث . للأمام المرحوم محمد جمال الدين القاسمى ص ٢٠٥ طبعة الحلبى .

وذلك من باب المراعاة فى الجواب ، حتى لا يكون الشيخ أقل من تلميذه فى الخطاب ..

وكما كان الرجل يطلب الاجازة « أو يستدعى » الشيخ ، لنفسه ، كان يطلبها لأولاده أو اخوته أو بعض أقاربه . ومن طريف ما لقيناه من ذلك ذلك « الاستدعاء » أو تلك « الاستجازة » التى طلبها ابراهيم العمادى ـــ قريب مفتى الشام ـــ لأكبر اخوته وأوسطهم وأصغرهم . وقد وجه الطالب هذا الاستدعاء الشعرى الى المقرى قائلا فى مطلعها :

فازت دمشق الشام بالمقــرى الألمعى ، اللوذعى العبقــــرى

ثم يخلص من المدح الى طلب الاجازة لاخوته قائلا :

مولاى ! يا من در ألفـــــاظه صحاحها تزرى على الجوهرى!
أجازة ترفل من فضـــــــلها فى ثوب عز ، وردا مفخــر
مسبلة الذيل عــــلى أكبر وأوسط الأخوة والأصــغر !
أطل لنا أنشـــــادها بل أطب وانظم لنـــا من درها وانثر !

وما أخطأ المقرى أمل الطالب ، ولا أمنية الراغب ، فقد كتب له اجازة شعرية تقارب الثمانين بيتا [٣] ولم تكن الاجازة التى كتبها أحمد المقرى لاخوة ابراهيم العمادى بدمشق هى الوحيدة التى منحها طلبته فى دمشق الشام ، فقد كتب أيضا اجازة شعرية

---

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٣٣ .

للأديب يحيى المحاسنى تبلغ بضعة وأربعين بيتا [٤] واستجازه بالشعر أيضا الشيخ المدرس محمد بن يوسف كريم الدين الدمشقى، فأجازه بأجازة شعرية تبلغ أبياتها بضعة وعشرين بيتا . واستجازه الشيخ حسن البورينى بأبيات شعرية يبلغ عددها خمسا يقول فيها :

يا سيدى وملاذى	وعالم الثقلين
ومن غدا بمكان	علا على النيرين
أجزت بالدرس قوما	فاقوا به الفرقدين
فزين العبد أيضا	من مثل ذاك بزين
وان يكن فى ختام	فذاك قرة عينى !

فأجازه المقرى أيضا باجازة شعرية تبلغ ستة وعشرين بيتا . وكذلك فعل المترجم له مع الشيخ عمر القارى الدمشقى حين استجازه وهو مستوفر للعودة الى مصر ، فكتب له اجازة شعرية على عجل .. أما الأديب الشاعر الدمشقى المولى أحمد بن شاهين ، الذى نزل المقرى فى كنفه ورعايته ، فقد استجازه رواية كتابه (اضاءة الدجنة ، فى عقائد أهل السنة) وغيره من الكتب ، فكتب له اجازة شعرية تبلغ سبعة وخمسين بيتا استهلها بالثناء عليه ، والاشادة بفضله .

وقد تلقى تلاميذ المقرى اجازاته هذه بالقبول والرضا والفرح ،

---

(٤) المصدر نفسه ص ٥٣٥ .

وافتخروا كل الفخر باحرازهم لها ، وحصولهم عليها . فالأديب المولى أحمد شاهين يلهج بأمالى المقرى قائلا : (وما زلت ألهج بما أفادنيه ، شيخى من أماليه ..) ، والأديب يحيى المحاسنى الدمشقى يعترف له من رسالة بأنه (تلميذه الذى لم يزل مغترفا من فيض علومه ، معترفا بحقه) ، ثم يعود فيؤكد له هذه التلمذة ، والافتخار بالتتلمذ عليه قائلا : (ان الراقم لهذه الصحيفة .. هو تلميذكم ، من تشرف بدرسكم ، وافتخر باجازتكم) .

وكما كان أهل المشرق يقدرون أستاذية المقرى ومشيخته ، كذلك كان أهل المغرب ، فقد اعترفوا له بها من غير مكابرة أو نزاع . وتؤكد لنا ذلك رسالة بلغته من أحد تلاميذه العلماء بالمغرب — وهو بمصر — يعترف فيها بهذه الأستاذية قائلا : (.. كبير زمانه دون منازع ، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع ، شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرى ..) .

لقد كان المقرى صاحب نفح الطيب شيخا ومعلما ينشر العلم فى كل مكان ..

تحت قبة النسر

فى الجامع الأموى

قبل أن نمضى فى الغرض الذى أردنا له من هذا الفصل — وهو وصف مجلس للدرس ألقاه الشهاب المقرى فى الجامع الأموى بدمشق — يجدر بنا أن نقول كلمة عن قبة النسر التى جعلناها عنوانا لهذا الفصل من الكتاب .

والجامع الأموى معروف مشهور . وبانيه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وقد مات الوليد قبل أن تتم زخرفة المسجد ، فأكملها أخوه والخليفة من بعده : سليمان بن عبد الملك وجدد فيه أشياء أخر .

وقد كان المسجد الأموى قبل الاسلام معبدا ، فلما دخل المسلمون دمشق أخذوا النصف الشرقى من هذه الكنيسة القديمة ، وما زالوا بالنصف الغربى حتى أخذوه وعوضوا النصارى عنه أربع كنائس أخرى . ولما احتاج الوليد ابن عبد الملك فى عمارة المسجد الأموى الى صناع كثيرين طلب من ملك الروم أن يمده بحاجته منهم ، فبعث اليه مائتى صانع ..

وتقع « قبة النسر » فى الجهة القبلية من الجامع الأموى .

ويقول المؤرخون ورجال الفنون الاسلامية انه ليس فى دمشق أعلى ولا أبهى منها منظرا . ولها ثلاث منائر ، كانت احداهن — وهى الكبرى — ديدبانا للروم قبل الفتح العربى ، فأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة .

ويتصل الحديث عن قبة النسر فى المسجد الأموى بدمشق بحديث عن قبة أخرى هناك تقع فى الجهة الغربية من صحنه . ويسميها الناس قبة عائشة — كما يذكر ذلك صديقنا العالم الجليل المرحوم الأستاذ محمد كردعلى فى « خطط الشام » — أما المحبى — صاحب خلاصة الأثر — فيسميها القبة الباعونية .

ونستطيع أن نجمع من هاتين التسميتين اسم « عائشة الباعونية » الشاعرة الأديبة الفقيهة الدمشقية ، التى أدركت اثنين وعشرين عاما من القرن العاشر الهجرى ، فقد أجيزت بالفتوى والتدريس — كما يذكر نجم الدين الغزى فى « الكواكب السائرة » ، وابن العماد الحنبلى فى « شذرات الذهب » — وليس ببعيد أنها كانت تجلس فى تلك القبة الغربية فنسبت اليها . ولم تسعفنا المراجع بما يثبت أن عائشة الباعونية جلست للتدريس فى تلك القبة .

والذى ساقنا الى الحديث عن قبة النسر وقبة الباعونية فى الجامع الأموى ، هو ذلك الخبر الذى انفرد بروايته فيما بين أيدينا من مصادر ، المؤرخ المحبى صاحب « خلاصة الأثر » ، فقد روى

لنا فى الجزء الأول من خلاصته ، وفى خلال الترجمة للمقرى ، صورة طريفة لمجلس للدرس ألقـاه الشهاب المقرى فى المسجد الأموى فى أثناء زيارته لدمشق سنة ١٠٣٧ هـ ، تلك الزيارة التى فرح بها أهل الشام للقاء عالم مغربى حلو المحاضرة ، واسع الرواية ، حسن الحديث ، واستقصروا مدتها التى لم تزد على الشهر الا قليلا ، كما يخبرنا بذلك الأديب الشيخ أبو بكر العمرى شيخ أدباء دمشق فى عصره — كما نعته المقرى — من قصيدة يمدح بها صاحب نفح الطيب قائلا :

وفى دمشق الشـام دام سـعدها
كان له بها المقـام الأسـعد

العلمـاء أجمعـوا جميعهم
علـى معاليه التى لا تجحـد

أقـام شـهرا أو يزيد ، وانثنى
وفى الحشا منه المقيم المقعـد [1] !

ولقد عبر شيخ الاسلام عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية بدمشق عن قصر هذه الزيارة فى رسالة بعث بها الى المقرى قائلا على طريقة السجع التى كانت بدعة ذلك العصر : (.. وظهرت شمس فضله — يعنى المقـرى — من الجانب الغربى فبهرت بالشروق ، وأصبح كل صب وهو الى بهجتها مشوق ، زار الشام

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٤٤ .

ثم ما سـلم حتى ودع ، بعد أن فرغ بروضـها أفنان الفنون فأبدع ..) .

ويذكر لنا المحبى المؤرخ فى وصفه لهذا الدرس الذى ألقاه المقرى فى الجامع الأموى أن صاحبنا أملى صحيح البخارى بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح . فبدأ الناس يتكاثرون على الدرس يوما بعد يوم حتى ضاقت بهم تلك القبة على سعتها ، فخرج المقرى الى صحن الجامع لعله يكون أكثر رحابا ، وأوسع جنابا ، تجاه القبة المعروفة بالباعونية . ولم يحتشد طلبة العـلم فى دمشق وحدهم لحضور هذا الدرس الذى يلقيه عالم زائر مغربى وفد الى بلدهم ، بل حضره غالب أعيان علماء دمشق على اختلاف منازلهم فى العلم . وليس هذا غريبا . فاننا نجد فى دروس العلم بالأزهر على توالى عصوره أن كبار العلماء كانوا يشهدون دروس بعضهم بعضا . وكانوا يعدون ذلك تكريما علميا لصاحب الدرس من ناحية ، وافادة من علمه من ناحية أخرى .

ويؤكد لنا المحبى المؤرخ أن طلبة العلم بدمشق لم يتخلف منهم واحد عن حضور درس المقرى فى الجامع الأموى .

ولما كان اليوم الذى يختم فيه المقرى صحيح البخارى فى حديث رسول الله عليه السلام احتشد الألوف من الناس ــ وهذه هى عبارة المحبى وتقديره العددى ــ فكان يوما حافلا جدا . واستعبر الناس بذكر النبى فعلت أصـواتهم بالبكاء . وهنـا

لم يجدوا مناصا من نقل حلقة الدرس الى وسط صحن الجامع الى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من شهور رجب وشعبان ورمضان .

ويظهر ان الشهاب المقرى أحب أن يزيد على املاء صحيح البخارى بكلام فى الحديث النبوى ، وبالترجمة للامام البخارى جامع هذا الصحيح المشهور ، فأتى له بكرسى الوعظ ، وهو بالطبع أعلى من كرسى التدريس ، فصعد عليه ، وتكلم بكلام فى العقائد والحديث لم يسمع نظيره أبدا كما يذكر صاحب خلاصة الأثر .

ولما فرغ من ذلك وأدهش السامعين بتدفق علمه ، وقوة حافظته ، وتمكنه من الموضوعات التى تناول الكلام فيها ، انتقل الى الكلام فى سيرة الامام البخارى وتقيته وتصونه وتحرزه فى جمع أحاديث الرسول . ثم تناول الكلام عن شعره ، فذكر انه ليس له غير بيتين من الشعر ، وأنشدهما فى المجلس . وهما :

اغتنم فى الفراغ فضل ركوع   فعسى أن يكون موتك بغتهْ
كم صحيح قد مات قبل سقيم   ذهبت نفسه النفيسة فلتهْ

وظلت هذه الجلسة الختامية من طلوع الشمس الى قرب الظهر . وقد غلبت على المقرى طبيعته الأدبية وميله الى رواية الشعر والاستشهاد به فى كل موطن . فلم يفته أن يعرج على ما نظمه البخارى من شعر ، كما لم يفته فى ختام الدرس أن ينشد أبياتا

من شعره هو كان قد قالها وهو فى طيبة مدينة الرسول يودع بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى :

يا شـــفيع العصـــاة أنت رجـــائى

كيف يخشى الرجاء عنـــدك خيبه ؟

واذا كنت حاضـــــــــرا بفؤادى

غيبة الجسم عنـــك ليست بغيبه

ليس بالعيش فى البـــلاد انتفاع

أطيب العيش ما يكون « بطيبـــه »

وهذه الأبيات الثلاثة التى رواها المحبى فى الخلاصة ، قد ذكرها المقرى نفسه فى مقدمة النفح وهو يتحدث عن زيارته لمدينة الرسول وعن توديعه لها ، الا أن البيت الأخير قد وقع فيه تحريف فى « خلاصة الأثر » حيث ذكر فيه هكذا :

ليس بالعيش فى البلاد انقطاع   أطيب العيش ما يكون بطيبة

ولا معنى لكلمة انقطاع هنا ، والصواب « انتفاع » كما ورد فى نفح الطيب (٢) .

ولا تنتهى بهذه الأبيات الوداعية تلك الصورة الطريفة التى صور بها المؤرخ المحبى مجلس المقرى فى الجامع الأموى بدمشق ،

---

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٠ ـ طبعـة المطبعة الأزهرية ، أما « خلاصة الأثر » فانظر صفحة ٣٠٥ من الجزء الأول .

فانه يمضى فى التصوير ذاكرا لنا كيف نزل المقرى من كرسى الوعظ الذى كان قائما عليه ، وكيف ازدحم الناس على تقبيل يده ، وكان ذلك — كما يقول — نهار الأربعاء سابع عشرى رمضان سنة سبع وثلاثين وألف .

ولقد شهدت قبة النسر بالمسجد الأموى بدمشق ، قبل جلوس المقرى تحتها للتدريس والاملاء وبعد رحيله عن دمشق عائدا الى مصر ، كثيرا من الدروس المشهورة لكثير من العلماء . فمنذ كانت الدروس تلقى بالجامع الأموى وهذه القبة تموج بالطلاب الذين يتلقون تحتها العلم على شيوخهم . وكثيرا ما شهدت املاء صحيح البخارى من علماء حفاظ ثقات ، كما شهدت املاء صاحبنا المقرى له كما سبق القول . فقد كان السيد محمد بن أحمد المنينى مفتى الحنفية بدمشق فى القرن الثالث عشر الهجرى [٣] يقرىء تحتها صحيح البخارى كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . وكان جده السيد الشهاب أحمد المنينى المتوفى سنة ١١٧٢ هـ هو أول من آل اليه — من بيت المنينى — اقراء صحيح البخارى ودرس الحديث النبوى تحت تلك القبة المشهورة .

وفى القرن الثالث عشر أيضا شهدت قبة النسر العالم الجليل الشيخ محمد الكزبرى وهو يقرىء تحتها « جامع صحيح

---

(٣) أدرك السيد محمد المنينى ستة عشر عاما من القرن الرابع عشر الهجرى حيث توفى سنة ١٣١٦ . انظر «حلية البشر» جـ ٣ ص ١١٨٨ .

البخارى » . ويصف العلامة الفقيه محمد بن عابدين درس الكزبرى هذا بأنه (كان درسا عظيما جامعا لكل خاص وعام ، مضمارا لفرسان أذهان الأعلام ، ويشير الى ذلك فى موشحة كان قد نظمها فى مدح الشيخ محمد الكزبرى قائلا :

من به قبة ذاك الجامع لم تزل فى كل عام تسعد
حين يروى فى الصحيح الجامع لحديث المصطفى أو يسند
يا له من خير درس جامع ولأهل العلم فيه مشهد
فكأن الوجه منه حينما ينثر الدر على الملتمس
قمر عن جانبيه العلما كنجوم أشرقت فى الغلس [٤]

ولم يفت علماء الشام وشعراءه فى عصر المقرى أن يشيروا الى مجالس دروسه فى الجامع الأموى وتحت قبة النسر فيه ، فهذا هو الأديب الصوفى محمد بن سعد الكلشنى أحد أفاضل الشعراء النازلين بدمشق يمدح المقرى بأبيات يقول فيها :

شهر شعبان جاءنا ليهنى
بقدوم الأستاذ كنز الفضائل

بهجة الكون روض علم وحلم
وهو مغنى اللبيب ان جاء سائل

---

(٤) حلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار جـ ٣ ص ١٢٢٩ ، وقد نقلها عن كتاب « العقود اللآلى فى الأسانيد العوالى » للعلامة محمد بن عابدين .

بمصابيح فضـــله قد أضـــاءت

ساحة « الجامع الكبير » لآمــل

ومعلوم أن الجامع الكبير هو المسجد الأموى بدمشق . وهذا الأديب الدمشقى تاج الدين المحاسنى يبعث اليه بعد عودته الى القاهرة رسالة من الشام يقول فيها عن الأفاضل الذين لقيهم المقرى فى دمشق وتعـرف بهم : (ليس لهم شـغل الا ذكر أوصافكم الحميدة ، وبث ما أبديتموه بدروسكم المفيدة) . ومعلوم ان هذه الدروس كانت تحت قبة النسر بالجامع الكبير . أما المحاضرات والمسامرات والمطارحات فقد كان لها مجالس خاصة فى كثير من دور دمشق العامرة ، وخاصة دار أحمد الشاهينى الذى أحاط «المقرى» فى أثناء زورته لدمشق بكل عناية ورعاية ما فتىء الرجل يذكرها ويشير اليها ويشيد بها (فلقد أوفى من الحقوق ما لا تؤدى بعضه فضلا عن كله) (٥) .

---

(٥) نفح الطيب . ج ١ ص ٥٥٧ .

أصحاب المشرق وأصدقاء المغرب

على الرغم من السنوات الطويلة الأربع عشرة التى قضاها أبو العباس أحمد المقرى فى مصر ، لم نعثر فيما لدينا من مصادر وكتب فى السير وطبقات الرجال فى القرن الحادى عشر على اسم عالم أو أديب مصرى انعقدت بينه وبين المقرى صلة ، أو دارت بينه وبينه مطارحة أو مفاكهة كتلك التى دارت بينه وبين حفنة من أدباء دمشق وشعرائها وعلمائها . ولا ندرى السر فى هذا الوضع الغريب الذى لقيه الرجل فى مصر .

وقد كان أحمد المقرى رجلا ألوفا جميل العشرة سمح الخلق ، وكان فى مصر فى عصره جماعة من العلماء والأدباء الذين يرحبون بكل قادم ، ولا سيما اذا كان فى مثل مكان المقرى وفضله وسعة روايته وغرائب محفوظه عن الأندلس وأهلها وتاريخها . فما بال علاقات المقرى مع أدباء مصر وعلمائها تسكت عنها المصادر ، بل يسكت عنها أبو العباس نفسه . وكثيرا ما حدثنا صاحبنا فى « النفح » عن اخوانه وزملائه فى المغرب من الوزراء والعلماء ، وعن أصحابه فى دمشق الذين توطدت بينه وبينهم علاقات ود ، وصلات حب شديدة فى مقامه هناك الذى لم يزد على بضعة أسابيع ؛ فهو يذكرهم فى غير موضع من كتابه ، ويذكر بعض

مطارحاته معهم ، ويذكر بعض الرسائل التى تبودلت بينه وبينهم . ولكنه حين يذكر مصر والقاهرة مرارا كثيرة ، ويشير الى ملازمته خدمة العلم فى الأزهر المعمور ، ويذكر خروجه منها للزيارة والحج ودخوله اليها ، ويذكر عودته من الشام اليها واستقراره فيها سنة ١٠٣٧ هـ لا يشير بكلمة صغيرة الى واحد من العلماء لقيه فيها ، أو واحد من الأدباء اجتمع به على أرضها ، مع أن كتابه الضخم قد وسع كل شىء ، واتسع لكثير من الأخبار والمناسبات والاستطرادات والتكرار الذى يتحير معه القارىء .

يخيل الى أن المقرى كان فى خلال مقامه بالقاهرة منطويا على نفسه ، منعزلا عن الالمام بالناس ومخالطتهم ، فلما ذهب الى دمشق وفتح له الأديب الكريم أحمد شاهين بيته وصدره ، تفتحت نفس المقرى للمجالس والندوات والأسمار والمطارحات ، وسرعان ما تألف الود بينه وبين هؤلاء الأدباء ، وطرحوا الكلفة فيما بينهم مع الاجلال والتقدير له .

ويحدثنا المحبى [1] عن مجلس من تلك المجالس الدمشقية التى كان المقرى واسطة عقدها ، ودرة جيدها . وقد دارت فيه مطارحة شعرية بين المقرى وبين المفتى العمادى فقيه الأحناف فى وقته . وكان الأديب السرى أحمد شاهين حاضرا ذلك المجلس فى دعوة بعض الأعيان . وكان فى المجلس قطع من الثلج نثرت فى

---

(١) خلاصة الأثر جـ ١ ص ٣٠٧ .

صحاف ، فمس المقرى الثلج وقال : ألماس هذا ؟ فهزت المناسبة أحمد شاهين ـــ وهو شاعر ظريف ـــ فأنشد مرتجلا :

شيخنا المقرى ، وهو الناس والذى بالأنام ليس يقاس
مس ثلجا وقال : الماس هذا قلت الماس عندنا الماس !

ثم ارتجل على أثرهما بيتين آخرين فى الثلج ، من غير البحر والقافية :

غنيت بالثلج عن سوداء حالكة
من قهوة لم تكن فى الأعصر الأول
وقلت لما غدا خلى يعنفنى
فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل !

فقال المفتى العمادى :

يا بردها ثلجة جاءت على كبد
حراء من فرقة الأحباب ، فى وجل

فقال المقرى :

تحلو اذا كررت ذوقا وعادة ما
أعيد أن يلتقى بالكره والملل

فقال العمادى :

لعل أعلاله بالثلج ثانية
يدب منها نسيم البرد فى عللى !

فقال المقرى :

اذا دعانى بمصر ذكر معهـــــدها
أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل !

فقال العمادى :

لو كان فى مصر مــــاء بارد لكفى
عن الثلوج ، ومن للعور بالحول ؟ !

ولقد صاحب المقرى فى المغرب كثيرا من الرجال ، بل صادقهم مصادقة أكيدة ، وكان دائم الاتصال بهم من الشرق عن طريق الرسائل التى كان يحملها الحجاج المغاربة العائدين الى وطنهم بعد أداء الفريضة . فمن أصحابه الأدنين فى المغرب الشيخ محمد ابن يوسف المراكشى التاملى معلم الملوك كما نعته صاحبنا [٢] وكانت المراسلات بينهما دائمة على بعد الشقة بين المشرق والمغرب ، ففى احدى رسائل التاملى اليه يقول له : (وقد كنت كتبت ـــ أعزكم الله تعالى ـــ اليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة ..) . وقد حمل رسالة المقرى اليه من الحجاز رجل من صعاليك الحجاج ـــ كما يصفه التاملى ـــ لقيه بمراكش ، فأوصل اليه كتاب المقرى اليه ، وأبلغه سلامه . وكثيرا ما كان حجاج المغرب يقومون بدور الرسل بين المقرى وأصدقائه فى الوطن المغربى . كالحاج الصالح السيد أبى بكر الذى يشير اليه التاملى فى رسالته .

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٥٨ .

ولقد كان للمقرى فى المغرب صديق من أهل الجاه والسلطان والعلم والأدب ، هو الوزير عبد العزيز الفشتالى ، المكنى بأبى فارس ، وزير المنصور سلطان المغرب الذى أدرك المقرى عهده كما أدرك عهد ولده من بعده . ويثنى المقرى فى النفح على الوزير الفشتالى فى غير موضع ، ويذكره دائما بألقاب التجلة والتقدير ، فيقول عنه (صاحبنا وزير العلم بالمغرب ، العلم الشهير المنفرد فى عصره بحيازة قصب السبق فى البلاغة) [٣] . وكان الوزير الأديب عبد العزيز الفشتالى يراسل المقرى وهو بالمغرب لما يبرحه الى المشرق ، وقد روى لنابعض رسائله فى النفح ، ودون كثيرا من أخباره وسيرته فى كتابه المسمى « روضة الآس ، العاطر الأنفاس ، فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » . وهو كتاب مفقود ، وان كان الأديب المغربى عبد الحى الكتانى يقول انه وجد اسمه فى فهرس المكتبة السلطانية بفاس ، ولكنه لم يقف عليه [٤] .

وقد بلغت أنباء وفاة الفشتالى صاحبنا المقرى وهو بالمشرق سنة ١٠٣١ ، أو بعد عام سنة ١٠٣٠ كما يقول هو . ولا شك انه حزن كثيرا على موته .

---

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٤) المقرى : للحبيب الجنحانى . وانظر فى أخبار الوزير الفشتالى : سلافة العصر لابن معصوم ، وخلاصة الأثر للمحبى ، واليواقيت الثمينة لمحمد البشير الأزهرى ، والاستقصا للسلاوى .

ومن أصدقاء المقرى فى المغرب الكاتب الأديب أبو الحسن على بن أحمد الشامى المغربى . ولقب بالشامى لأن جده قدم من الشام أى من الشرق الى المغرب ، فنزل فاس واستوطن بها ، فاشتهر أولاده بالنسبة الى وطنهم الأصلى . وان كان مؤرخو السير يجمعون لهم بين لقب الشامى والمغربى (٥) .

هؤلاء بعض أصحاب المقرى فى المغرب ، اخترناهم ليمثلوا ثلاثة أصناف من الناس اختارهم المقرى لصحبته . فأولهم عالم فقيه ، وثانيهم وزير كاتب شاعر ، وثالثهم أديب .

أما أصحاب المقرى فى دمشق فهم حفنة من أعيان العاصمة وأدبائها وعلمائها . ويأتى على رأس قائمتهم الولى الأديب الشاعر أحمد شاهين ، وأصل والده من الفىء الذى غنمه المسلمون فى فتح قبرس . وقد ولد له أحمد بدمشق فنشأ فى الجندية العثمانية ، وأسر فى الفتنة بين على بن جانبولاد والعسكر الشامى ، ولما أطلق سراحه ترك السيف والجندية ومال الى العلم والأدب فتعلمهما على يد الحسن البورينى وعمر القارى والفقيه المفتى عبد الرحمن العمادى وأبى الطيب الغزى . وقد جمع المولى الشاهينى هذا الى الأدب والشعر والعلم الجاه والمنصب ، فناب فى القضاء بدمشق ، وتولى قضاء الركب الشامى ، ولقى ادريس بن الحسن شريف مكة ، وتولى التدريس بالمدرسة الجقمقية ، وهى المدرسة التى أنزل فيها المقرى ضيفا على الرحب والسعة . وتجد فى باب

---

(٥) سلافة العصر ص ٥٩٩ .

« دمشق والقاهرة » من كتابنا هذا نص البيتين اللذين بعث بهما أحمد شاهين الى المقرى مع هدية وعطية . ونذكر هنا نص الأبيات التى رد بها المقرى على صاحبه :

يا واحد العصر الذى بمديحه — سارت ركاب المجد فى البلدان
أوليتنى ما لا أقوم بشكره — مالى بشكر المنعمين يدان
ونظمت أشتات الكمال جواهرا — أضحت تفوق قلائد العقيان
فالله يُبقى من جنابك سيدى — عين الزمان ، ومفخر الأعيان

ولأحمد شاهين هذا أشعار رقيقة ، حتى لقد جمع بعض الفضلاء — كما يقول المحبى [٦] — شعره فى كتاب ضخم أسماه (الرياض الأنيقة ، فى الأشعار الرقيقة) . وقد كنت أتوقع أن يوجد هذا الديوان بين مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ولكن فهرسها المطبوع سنة ١٩٦٤ برعاية المجمع العلمى العربى لم يهدنى اليه [٧] . وقد روى صاحب الخلاصة طرفا من شعر المولى الشاهينى — أو أحمد شاهين — وذكر من قوله المستجاد أبياته الرقيقة التالية :

نصل الشباب ، وما نصلت من الهوى
وبدا المشيب وفىَّ فضل تصابى
وغدوت أعترض الديار مسلما
يوما ، فلم تسمح برد جوابى

---

(٦) خلاصة الأثر جـ ١ ص ٢١١ .
(٧) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، الشعر . وضع د . عزة حسن — دمشق .

فكأنها ، وكأنني في رســـــمها

أعشى يحدق في ســطور كتاب ..

ومن أصحاب المقرى فى الشام عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية بدمشق وابن مفتيها ، وقد ترجم له المحبى فى الخلاصـة ترجمة طويلة ، وذكر انه كان تلميذا لجده القاضى محب الدين . ولما زار المقرى الشام سنة ١٠٣٧ كان العمادى مفتيا لدمشق منذ سنة ١٠٣١ هـ ، وكثر لقاؤهما هناك فى مجالس مختلفة ، وقامت المراسلات بينهما بعد عود المقرى الى القاهرة ، وكان للشعر — أو النظم — دور كبير فى هذه المراسلات ، فقد كتب المقرى اليه مرة مستهلا بالبيتين الآتيين :

يا حادى الأظعان نحو الشآم   بلغ تحياتى لتلك الفئـــام
وابدأ بمفتيها العمادى الرضا   دام به شمل الهنا فى التئـام

فأجابه عبد الرحمن العمادى بكتاب افتتحه بهذين البيتين :

الى أهالى مصر أهدى السلام   مبتدئا بالمقـــرى الهمـام
من ضاع نشر العلم من عرفه   ولم يضع منه الوفا للذمـام

وتجد فى فصل آخر من كتابنا مطارحة الثلج التى دارت بين العمادى والمقرى على طريقة الارتجال فى احدى ندوات دمشق . ومن أصدقاء المقرى فى دمشق الشيخ العالم عمر القارى ، ويصفه أحمد شاهين فى احدى رسائله الى المقرى بأنه (الشيخ البركة شيخ الاسلام) ويصفه المحبى فى الخلاصة بأنه (كان اماما محدثا

بارعا وحيدا محدثا فقيها أصوليا حسن الرواء متواضعا خلوقا جم الفائدة والأدب طويل الباع حسن الخط والتقرير) ومن الطرائف عن عمر القارى أن أباه لم يكن من أهل العلم ، وخرج ابنه المسمى « عليا » من غير أهل العلم كذلك ، فانه كان من المشتغلين بالجندية ، ولهذا كان الامام الشيخ حسن البورينى يقول عن عمر القارى (انه وجود بين عدمين ..) [٨] .

واذا كان عبد الرحمن العمادى وعمر القارى من صنف العلماء الفقهاء الذين اتصل بهم المقرى اتصال صداقة وود وتعارف فى دمشق ، فان هناك من الأدباء — غير المولى أحمد شاهين — الأديب الشاعر « ابراهيم الأكرمى » الذى دارت بينه وبين صاحبنا مخاطبات شعرية . وقد كان الأكرمى هذا كآبائه من خدام باب الشيخ الصوفى الأكبر محيى الدين بن عربى . ومع هذا فقد كان الرجل مشهورا بخمرياته وغزلياته .. ! ويصف المحبى خمريات الأكرمى بأنها « تجعل الزاهد عاصيا » ، كما يصف غزلياته بأنها « تصير العاطل من الوجد حاليا » [٩] والحق ان خمريات الأكرمى رقيقة عذبة المعانى جيدة الصوغ ، ولعل هذا النموذج التالى منها يكشف عن سائرها :

ويوم فاختى الجـو رطب　　يكاد من الغضارة أن يسيلا
نعمت به ، وندمـانى أديب　　وقور فى تعاطيه الشمولا

---

(٨) خلاصة الأثر — ج ٣ ص ٢٢٤ .
(٩) الخلاصة ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .

قطعنا صبحه والظهـر شربا وجاوزنا العشية والأصـيلا
لدى روض عميم النبت يزهى بأزهار زهت عرضـا وطولا
يدور به سوار الروض طورا كما يتعانق الخـل الخليلا !

وحسبنا هذا النص للدلالة على خمريات ابراهيم !!

وقد يقال ان هذا الشاعر « المنحرف » كان عـلى سبيل المحاكاة « ورياضة القول » كما كانوا يعبرون . ولكن الذى لا شك فيه أن عصر المقرى كان منحرفا سواء فى المغرب أم فى المشرق ، وان هذه الألوان العابثة من الشعر كانت تدور حتى فى مجالس العلماء والمتصوفين ، بل كان يشارك بعض العلماء فى نظمها ، وللمقرى نفسه قصيدة مزدوجة لا ندرى كيف أباح فيها الشيخ لنفسه أن يسلك فى غزله هذا المسلك النواسى المعروف ؟

ومن أصدقاء المقرى الأدباء بدمشق محمد بن سعد الكلشنى ، الذى دارت بينه وبين صاحبنا مراسلات شعرية بعد عودة المقرى الى القاهرة . ولم يمتد به الأجل منذ عاد صاحبنا الى مصر ، فقد توفى فى أخريات العـام الذى زار فيه المقـرى دمشق ، أعنى سنة ١٠٣٧ هـ . ويصفه المحبى « بأنه كان من أدباء الصوفية كما يقول عنه : (وكان فضلاء دمشق يميلون اليه ، ويعاشرون منه رجلا سهلا خلوقا ، متوددا ، طارحا للتكلف ، صاحب نوادر وآداب . وكان ينظم الشعر ، وله شعر مطبوع) [١٠] .

---

(١٠) المصدر السابق ـ ج ٣ ص ٤٦٨ .

وكان فى حلقة المقرى الأدبية فى دمشق شاعر أديب آخر اشتهر بوصفه شيخ الأدب فى الشام ، وهو أبو بكر بن منصور العمرى الذى شارك فى نظم الموشحات والزجل والدوبيت والمواليا والقوما والكان وكان ، فكان فى كل منها — كما يقول صاحب خلاصة الأثر — سابقا لا يلحق ، ومتقدما لا يدرك . ومن هنا كانت له شعبية رائجة ، وصار شعره — وخاصة العامى منه — دائرا فى أيدى الناس ، سائرا على ألسنهم . وقد نحا نحو زميله « الأكرمى » فى غزلياته حتى اتهمه البديعى فى كتابه « ذكرى حبيب » بالانحراف [١١] . وهو ممن خاطبوا المقرى شعرا بعد عودته الى القاهرة ، وقد أورد له فى الجزء الأول من النفح قطعة من هذه المخاطبات .

وما حمل المقرى لواحد من هؤلاء الأصدقاء الدمشقيين من طيب الذكرى مثل الذى حمله للمولى أحمد شاهين ، (فلقد أوفى من الحقوق ما لا تؤدى بعضه فضلا عن كله) كما يقول عنه . والحق ان هذا الأديب الوجيه الدمشقى كان رجلا عالى الهمة ، والمروءة . وكان ينزل العلماء الوافدين على دمشق فى منزله ، فقد أنزل عنده أيضا ممن نعرفهم الشيخ غرس الدين الخليلى المحدث الفقيه الشافعى ، الذى جمع الى الفقه الأدب والشعر .

وقد جمع أحمد شاهين — صاحب الفضل فى تأليف كتاب نفح الطيب الذى يعد أكبر موسوعة أندلسية — الى الأدب

---

(١١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ .

والشعر والجود بما فى اليد والمروءة النادرة ، خفة الروح ، ولطافة النكتة . وكان فى عينيه حول .

وكانت تدار فى تلك المجالس والندوات الدمشقية أطيب الأحاديث ، وتدور أطرف النكات . فمن ذلك أن « المحبى » الكبير جد المحبى صاحب « خلاصة الأثر » كان قد دعى الى وليمة وكان الفصل قائظا ، والحر شديدا ، فحضر وفى يده مروحة ، وكان كبير اللحية . وصادف أن الأديب أحمد شاهين كان حاضرا فى هذا المجلس ، ولم تفته النكتة العابثة فقال : جاءنا المحبى بمروحتين ! يعنى المروحة الحقيقية التى فى يده ، ولحيته الكبيرة .. ولكن المحبى الكبير كان أسرع خاطرا ، وألذع نكتة ودعابة من ابن شاهين ، فقال معرضا بحول عينيه : هو رآها تنتين ، وهما فى نفس الأمر واحدة !!

رحم الله المقرى وأيامه ولياليه السامرة الساهرة فى دمشق ، كما رحم أعوامه الرتيبة المنطوية فى القاهرة !

طريقته فى التأليف

لكل مؤلف طريقته فى التأليف ، ومذهبه فى التصنيف ، ويكاد يلازمه ذلك فى أكثر ما يؤلفه . لأن طريقة التأليف هى جزء من شخصية المؤلف التى لا يستطيع الانسلاخ منها ، أو الانفصال عنها .

واذا كان المقرى فى كل كتبه التى اطلعنا عليها يميل الى التدوين والنقل أكثر مما يميل الى التحقيق والبحث ، فاننا سنقف فى هذا الفصل لحظات قصارا أمام الخصائص التى تميز طريقة المقرى فى تأليف كتبه ، مستعينين فى ذلك بكتابه الضخم « نفح الطيب » الذى يمثل لنا قيمة مؤلفاته ، والذى يجمع لنا كل الطرائق التى سلكها الرجل فى تصنيف الكتب . فهو يعد بحق النموذج الواسع المتعدد الأطراف ، الشامل لما اتبعه المقرى من طرق فى كتابة الكتب ، بل هو المرآة التى يتجلى فيها بصدق مذهبه فى التأليف .

وأول ما يلفت النظر فى طريقة أحمد المقرى هو ذلك النقل الهائل عن الكتب القديمة والمعاصرة له والقريبة من عصره التى اطلع عليها وقرأها فى بيته أو فى مكتبة السلطان زيدان — سلطان المغرب — التى كانت مفتوحة الأبواب ، والتى عل منها ونهل

كثيرا ، حتى حفظ منها ومن نصوصها جملة كثيرة هائلة أعانته عليها حافظته القوية التى تناولناها فى فصل خاص من هذا الكتاب .

ولا يكتفى المقرى ، فى نقله ، بالنصوص الشعرية مهما طالت أو قصرت ، ولكنه ينقل الأخبار الطويلة التى تبلغ صفحات . ثم لا يكتفى بذلك بل ينقل كتبا كاملة بما يكاد يقرب من نصوصها الكاملة . فهو من هذه الناحية أراد أن يجعل من « نفح الطيب » مكتبة تحتوى فى داخلها وما بين دفتيها على عدة كتب من تأليف غيره .

ويظهر هذا النقل فيما نقله من كتاب لجده المسمى أبى عبد الله محمد الذى كان قاضى القضاة بفاس . واسم هذا الكتاب « المحاضرات » ، ويحتوى على كثير من الفوائد والحكايات والاشارات . وقد كان المقرى يملك من كتاب جده هذا نسختين بالمغرب ، فلما بدأ بتصنيف « نفح الطيب » فى القاهرة أخذ ينقل من فوائده كثيرا حتى بلغ مجموع ما دونه منه فى النفح احدى عشرة صفحة ، ختمها بقوله : (انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاى الجد ــ رحمه الله تعالى ــ فى كتابه المحاضرات)[1].

وليس كتاب المحاضرات لجده هو الذى نقل منه وحده ، فقد نقل شطرا كبيرا من كتاب له آخر فى التصوف يسمى (الحقائق والرقائق) وقد بلغ النقل هنا ثمانى صفحات كبيرة من النفح ،

---

(١) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٤٨ ـ ١٥٩ .

فيذكر « الحقيقة » أولا ، ثم يتبعها « برقيقة » . وندع جد المقرى نفسه يشرح لنا المراد من حقائقه ورقائقه قائلا فى مقدمته : (هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ، وصفوة العلم ، ونقاوة العمل) ويختم نقله الطويل عن كتاب جده قائلا : (انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب الحقائق والرقائق لمولاى الجد الامام ..) .

ولما بدأ المقرى ينقل من كتاب « الانشادات والافادات » الذى ألفه أبو اسحاق الشاطبى تلميذ جده أبى عبد الله محمد المقرى أخذ ينقل من افادات جده وانشاداته ما بلغ بضع صفحات من النفح .

وحين ترجم المقرى لأبى عثمان بن ليون التجيبى من شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب ، ذكر طائفة من كتبه واختصاراته — فقد كان ابن ليون هذا مولعا باختصار الكتب حتى قال بعض ظرفاء المغرب فيه حين شاهد رجلا طوالا فارع القامة : لو رآه ابن ليون لاختصره !! — ولما انتهى المقرى الى ذكر كتاب « نصائح الأحباب وصحائح الآداب » لابن ليون نقل من نصوصه بضعا وثلاثين صفحة كاملة ، وهو قدر كبير من هذا الكتاب (٢) . وختم المقرى ما نقله من كتاب النصائح قائلا : « انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور » .

---

(٢) يبدأ النقل من ص ٣٠٢ الى صفحة ٣٣٦ من نفح الطيب ج ٣ .

ولم يكتف صاحبنا بما نقله من كتاب النصائح لابن ليون التجيبى ، فوصل كلامه بالنقل عن كتاب آخر له عنوانه (الأبيات المهذبة فى المعانى المقربة) . ويبلغ النقل من هذا الكتاب خمس عشرة صفحة كاملة ، انتقل فى نهايتها الى كتاب آخر للتجيبى عنوانه (أنداء الديم ، فى المواعظ والوصايا والحكم) .

ويلاحظ أن حكم ابن ليون التجيبى وأمثاله ووصاياه هى أبيات شعرية من نظمه هو لا من كلام غيره من الشعراء . والكتابان جليلان ، وهما من الكتب المفقودة ، ولولا ما نقله المقرى منهما لضاع كل أثر لهما على الاطلاق .

ولا بأس من الاستطراد هنا قليلا لنتحدث عن كتابى ابن ليون التجيبى فى منظوم الحكم والأمثال ، فالرجل فيهما انسان كثير التجاريب ، متعدد الخبرات ، وهو شاعر جيد القول . ومن هنا جاءت حكمه ووصاياه صادقة سائغة . وما أصدقه وهو يقول :

كل ما قد فات لا رد لـــــه   فلتكن عن ذاك مصروف الطمع
أيعود الحسن من بعد الصبا ؟   قلما أدبر شىء فرجـــــع

أو يقول :

لا تغرنك صـــولة الجاه يوما   أو تظنن انهـــــا تتمادى
صولة الجاه لفح نار ، ولكن   كل نار لابد تلقى رمـــادا !

أو يقول فى التأنى وأخذ الأمور بالرفق :

خـــذ الأمور برفق واتئـــد أبدا
    اياك من عجل يدعـــو الى وصب

الرفق أحسن ما تؤتى الأمـــور به
يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب
من يصحب الرفق يستكمل مطالبه
كما يشـــاء بلا أين ولا تعـــب

أو يقول فى العرفان بالجميل وشكر صاحب المنة :

اشكر لمن والاك معـــروفا   تكن بفضل النـــاس معروفا
شكر أخى المنة عـــدل ، فكن   بالعدل مهما اسطعت موصوفا
من يكفر الاحسان لابد أن   يلفى عن الاحســـان مصروفا

ولقد نقل المقرى من كتاب « أنداء الديم » لابن ليون التجيبى قدرا يبلغ ثلاثا وعشرين صفحة من « النفح » . وكما كان المقرى ينقل عن غيره ، فانه كان ينقل عن نفسه من بعض كتبه ، أو يحيل اليها بالاشارة حتى يعرف القارىء أنه نقل من هناك . فحين جاء ذكر حازم القرطاجنى فى النفح قال عنه (وقد عرفت بحازم هذا فى أزهار الرياض ، وذكرت جملة من نظمه) ثم أخذ يروى له شعرا سبق أن أورده فى أزهار الرياض ، مثل قصيدته التى مطلعها :

أدر المدامة ، فالنسيم مؤرج   والروض مرقوم البرود مدبج

فقد نقلها كاملة ، كما نقلها فى أزهار الرياض قبل ذلك كاملة .

وقد يكتفى المقرى فى نقله بأن ينقل فصلا من كتاب لمناســـبة يقتضيها الموضوع الذى يتكلم فيه ، أو الاستطراد الذى انساق اليه . فقد نقل فى النفح فصلا عن « الهجاء » من كتاب الذخيرة

لابن بسام . وهو كتاب لم يطبع منه فى مصر الا ثلاثة أجزاء وقف الطبع عندها ، وما أكثر ما ينقل المقرى عن كتب مفقودة أو نادرة أو لم يهتد البحث عنها الى شىء .

وتختلف عبارات المقرى التى يقدمها بين يدى الكلام الذى ينقله والنص الذى يرويه ، وعبارات الانتهاء من النقل . فيقول فى بدء النقل : قال فلان ، أو قال فلان ما صورته ، أو يقول : ونص محل الحاجة من الشاهد ، أو يقول : ولنورد ما فى كتاب كذا ما نصه ، أو غيرها من أمثال هذه العبارات الدالة على النقل ، فاذا فرغ من النقل قال : انتهى ، أو انتهى كلام فلان ، أو انتهى ما اختصرته من كلام فلان ، أو انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب كذا ، وغيرها من أمثال هذه العبارات الدالة على انتهاء النقل .

ولو أن المقرى استعمل العبارات الدالة على انتهاء المرويات والمنقولات دائما فى كتبه لتبين لنا بما لا يقبل الشك حد كلامه هو وحد كلام غيره . ولكنه فى بعض الأحيان يدخل الرواية على رواية أخرى بدون ذكر لفظة « انتهى » فيتداخل الكلام بهذا بعضه فى بعض ، فلا يدرى القارىء كلام من هو ؟

وللمقرى خاصية جيدة حين ينقل عن كتاب ، فهو لا يكتفى بمجرد النقل عنه والأخذ منه ، بل يتجاوز هذا الى ابداء الرأى فى الكتاب المنقول عنه ، والحكم عليه . كما نجده فى كلامه عن ابن الأبار وعن كتابه المسمى « درر السمط » فى خبر

السبط » ، فبعد أن نقل طرفا لا بأس به من الكتاب ، وبعد أن أشار الى انه سبق له التعريف بابن الأبار فى « أزهار الرياض » ختم النقل بقوله : (انتهى ما سنح لى ذكره من درر السمط ، وهو كتاب غاية فى بابه) [٣] .

وحين تصدى المقرى لعرض كتب لسان الدين بن الخطيب والنقل عنها ، وقف عند كتاب « رقم الحلل ، فى نظم الدول » ووصفه بقوله انه « فى غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة » [٤] . وذكر انه كان يحفظ وهو بالمغرب أكثر ما فيه ولكنه نسيه وهو بمصر ، ولكنه نقل بعضا مما علق بحفظه منه . وحين ذكر مؤلفات أبى العباس أحمد الشريشى أشار الى شرحه الكبير لمقامات الحريرى وقوّمه بقوله : (وفى الكبير من الآداب ما لا كفاء له)[٥].

ومما يلاحظ على المقرى فى طريقة تأليفه ذلك التكرار الذى يصادفه القارىء فى الكتاب الواحد فى غير موضع . والرجل معذور فى هذا ، فقد كان يدون كتابه « نفح الطيب » على غير منهج فى التأليف . وكانت الأفكار والحوادث والأخبار تنثال عليه فيقيدها فى موضع ، ثم قد يطول به مدى الكلام فينسى انه قيدها ، فيعود الى ذكرها . أو قد يذكر شيئا فى موضع ، وبعد

---

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٤ ج ٤ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧٧ .

صفحات قليلة أو كثيرة يروى نصا فيه ذكر لذلك الشيء ، فيتكرر ورود ذلك على الرغم منه .

فقد أورد فى النفح كلاما عن العالم ابن مرزوق الذى ألف كتابا فى تاريخ جده أبى عبد الله محمد المقرى . واسم هذا الكتاب (النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى) وعقب المقرى على هذه النسبة التى جاء بها ابن مرزوق (بناء منه على مذهبه انه يفتح الميم ، وسكون القاف ، كما صرح بذلك فى شرح الألفية عند قوله : ووضعوا لبعض الأجناس علم . وضبطه غيره — وهم الأكثرون — بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عول أكثر المتأخرين ، وهما لغتان فى البلدة التى نسب اليها ، وهى مقرة ، من قرى زاب أفريقية) (٦) .

وبعد بضع وثلاثين صفحة من النفح عاد المقرى ، فنقل كلاما عن كتاب « نيل الابتهاج » ترجم فيه مؤلفه لجد المقرى ، وذكر فى الترجمة مسألة ضبط بلدة مقرة بفتح الميم وسكون القاف .

وعاد المقرى بعد صفحات أخرى من هذا (٧) فأعاد الكلام فى مسألة اسم البلدة التى سب اليها قائلا : (وقد تقدمت الاشارة الى أن اسم هذا التأليف — يعنى كتاب النور البدرى — مبنى على ان المقرى بفتح الميم وسكون القاف) .

والتكرار الملحوظ فى كتاب نفح الطيب قد ألجأت اليه كثرة

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١١٠ .

(٧) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٤ .

الروايات فى الغرض الواحد ، فيقع التكرار على غير قصد من المؤلف . ولكن الرجل لا يفوته هذا ويدرك أن الذى يذكره هنا سيأتى بعد قليل لأنه منقول عن كتاب معين بلفظه . فينبه عليه . ففى خلال حديثه عن القاضى أبى الوليد الباجى ذكر أن الخطيب البغدادى روى عنه قوله :

اذا كنت أعلم علم اليقين   بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها   وأجعلها فى صلاح وطاعة ؟

وعقب على ذكر البيتين بقوله : (وقد ذكرناهما فيما يأتى قريبا من كلام الفتح — يعنى الفتح بن خاقان — لكوننا نقلنا كلامه بلفظه) ثم بدأ ينقل كلام الفتح بن خاقان وفيه ذكر للبيتين مرة ثانية . وقد وقع هذا التكرار بعد بضعة سطور قليلة ، لا بعد صفحات طويلة [٨] .

ومن غرائب ما لاحظناه من التكرار عند المقرى أنه قد يترجم لشخص فى موضع من كتابه ، ترجمة منقولة عن كتاب أو كتب ، ثم يعود فى موضع آخر بعيد عن الموضع الأول فيترجم لشخص يتفق اسمه مع اسم من ترجم له أولا . والترجمة الأولى عن كتاب أو مصدر معين ، والثانية عن مصدر آخر غيره ، ولا تتفق الترجمتان فى التفاصيل . فيتنبه المقرى لهذا ، ويستظهر — على سبيل الظن ، بل على سبيل الاعتقاد — أنهما لشخص واحد . ففى صفحة ٣٦٧

---

(٨) المصدر نفسه ص ٣٥٧ ج ١ .

من النفح ترجم للكاتب أبى عبد الله محمد بن عبد ربه المالقى ـــ على انه ممن رحلوا من المغرب الى المشرق . ثم جاء فى صفحة ٣٧٨ فذكر كاتبا آخر باسم (أبى عبد الله محمد بن الشيخ الأجـل أبى الحسن بن عبد ربه ، وهو من حفداء صاحب كتاب العقد المشهور) . وبعد ما فرغ من ترجمته فى هذا الموضع الثانى عقب قائلا : (وتقدمت ترجمة الكاتب أبى عبد الله بن عبد ربه ، وأظنه هذا ، فليتنبه له ، بل أعتقد أنه هو لا غيره) واكتفى المقرى بهذا التعقيب ولم يحقق لنا عن طريق الشعر الذى رواه للاثنين ، أو عن طريق سفرهما الى الاسكندرية مثلا اذا كانا شخصا واحدا أم شخصين مختلفين .

ومن لطائف المقرى فى نقله ورواياته عن محفوظه من الكتب أنه اذا وجد ما رواه ناقصا أو غير كاف بالغرض أشار الى ذلك ، ثم زاد عليه ما يفى بالبحث . كما فعـل فى ترجمتـه للقاضى ابن العربى ، فقد وجد ما نقله عن ابن سعيد ناقصا ، فعقب عليه قائلا : (وما وفى ابن سعيد حافظ الاسلام أبا بكر بن العربى حقه ، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به ..) [٩] . وكما فعل فى ترجمته لأبى الوليد الباجى نقلا عن كتاب الفتح بن خاقان ، فقد عقب عليها قائلا : (ولعمـرى انه لم يوف القـاضى أبا الوليد الباجى حقـه الواجب المفترض ، ووددت انه مـدّ النفس فى ترجمته .. الخ) [١٠] .

---

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٦ .
(١٠) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

ويلفت النظر فى طريقة المقرى فى التأليف ذلك الاستطراد الكثير الذى يزدحم به كتاب نفح الطيب على الخصوص . فبينا هو يتحدث فى موضوع أو غرض معين ، اذا به يتركه ويدخل فى غرض آخر ، ثم يعود الى الموضوع الأول عودا على بدء ، وقد لا يعود اليه ، بل يدخل فى موضوع جديد . ولهذا يشعر القارىء الذى يود بحث موضوع معين بتشتيت ذهنه بين هذه المسالك المتشعبة من الحديث . أما القــارىء الذى يريد القراءة لا غير فقد يجد فى هذا التنقل والتحول ، والبدء والعود رياضة ولذة خاصة ، هى لذة المناسبة الطارئة ، أو ذكر الشىء بالشىء .

وليس المقرى غافلا عن استطراداته الكثيرة أو غير واع لها . بل هو على الضد من ذلك محس بها ، متنبه لها . وما ألطفه بعد استطراد طويل حين يقول : (وقد خرجنا بالاستطراد الى الطول ، وذلك منا استرسال مع جاذب الأدب . فلنمسك العنان !) [١١] . ويعترف المقرى فى هذا الاعتذار اللطيف من الاستطراد الطويل بأنه انجذب مع الأدب ، وانساق مع حديث الشعر والمدح لدمشق التى أحبها ، فأبعده ذلك الانجذاب عن ترجمته لابن جبير التى خرج بالاستطراد منها ، ثم عاد اليها بعد الاعتذار ، مستأنفا الكلام بقوله : « رجع الى ابن جبير » .

ومساق الحديث عند المقرى يقوده الى الانتقال من شىء الى

---

(١١) المصدر نفسه ص ٥٦٥ .

شيء ، فلا يلبث أن يخرج بك من الموضوع الأول ممهدا للخروج منه بعبارة تدل على ذلك كقوله « قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يذكر .. » أو ما اليها من العبارات الدالة على الاستطراد . فحين روى أبياتا نقشت على احدى الدور فى مدينة مكناسة الزيتون تذكر فى اللحظة عينها أبياتا رآها هو بعينه مكتوبة علــى دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التى بناها أمير المسلمين ابن تاشفين ، وكانت من بدائع الدنيا ، فمهد لرواية هذه الأبيات بقوله : (قد تذكرت هنا والشيء بالشيء يذكر .. الخ) [١٢] . وحين روى لابن جزى تصديرا لأعجاز قصيدة امرىء القيس التى مطلعها :

ألا عم صباحا أيها الطلل البـــالى

وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وفرغ من قصيدة التصدير هذه ، عقب عليها بقوله : (ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، واحكام هذا النسج . وقد أذكرنى هذا التصدير قصيدة الأديب حازم ـــ يقصـــد حازم القرطاجنى ـــ صاحب المقصورة ، اذ صدر قصيدة امرىء القيس : قفانبك . ولنذكرها هنا) [١٣] ثم أخذ يروى هذه القصيدة التصديرية ، التى ذكرته بها قصيدة ابن جزى . ولم لا وهو متبع دائما ما جاء فى المثل : الشيء بالشيء يذكر .

وأمام هذه الاستطرادات الكثيرة الواضحة وجـد المقرى

---

(١٢) نفح الطيب جـ ٣ ص ٤٢٩ .
(١٣) المصدر نفسه ص ٢٧٦ .

نفسه مضطرا الى أن يصل حبل الكلام فى الموضوع الأصلى ويرتد به عودا على بدء ، فلجأ الى استعمال هذه الكلمة « رجع » التى يزدحم بها كتاب نفح الطيب ازدحاما ما عهدناه فى كتاب آخر . فحين يخرج عن غرض من القول أو الحديث ثم يروم العودة اليه يكتب هذه اللفظة : رجع ، أو هذه العبارة : رجع الى ما كنا فيه [١٤] . أو : رجع الى فلان ـــ أى رجع الى الحديث عن فلان الذى كنا فيه ، أو : رجع الى ما كنا فيه من أحوال فلان ، أو : رجع الى ما كنا بصدده . أو رجع الى ما كنا بسبيله .

ويلاحظ على المقرى فى تأليفه أنه ينبه القارىء ويحيله على الموضوع الذى يتناوله فى موضع آخر من كتابه . فحين روى فى الجزء الثانى من النفح الأبيات الخمسة التى نظمها أبو عبد الله الهراوى موريا بأسماء عشرين كتابا عقب عليها بقوله : (وقد أوردنا فى ترجمة أبى عبد الله بن جزى الكاتب الأندلسى جملة مستكثرة فى التورية بأسماء الكتب ، فلتراجع ثمة) . وبالفعل حين ترجم لابن جزى فى الجزء الثالث [١٥] أورد له كثيرا من التوريات النثرية والشعرية بأسماء الكتب . ثم غلب عليه الاستطراد بعد ذلك فذكر طائفة من التوريات بالكتب لغير ابن جزى ، من أمثال الأرجانى ، وابن خاتمة ، والحضرمى ، وابن الخطيب .

---

(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٣ .
(١٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٩٢ .

والمقرى كثير المراعاة للتناسب فى ايراد الأخبار وروايتها فى كتبه ووضعها فى مواطنها اللائقة ، وانزالها منازلها المناسبة . ففى الجزء الأول من النفح ذكر انتقاض العدو على أطراف الأندلس ، واحساس المسلمين بنية الأسبان فيهم ، وتنبه الشعراء والكتاب الى بدء النكبة ، وروى الأبيات والرسالة التى بعث بها القاضى أبو المطرف بن عميرة الى الشيخ أبى جعفر بن أمية حين حل الرزء بمدينة بلنسية أول الأمر [١٦] . ثم عاد فى آخر الجزء الثانى من النفح وبعد بضع مئات من الصفحات يقول : (قد ذكرنا فى الباب الثانى رسالة أبى المطرف بن عميرة الى أبى جعفر بن أمية ، وهى مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية حين أخذ العدو بلنسية ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقى من الأندلس ، فراجعها فيما سبق ، وان كان التناسب التام فى ذكرها هنا ، فالمناسبة هناك حاصلة أيضا) [١٧] وهنا كان المقرى أحصف من أن يعيد نشر رسالة أبى المطرف فاكتفى بالاشارة اليها ، والاحالة عليها ، وطلب مراجعتها فى الباب الذى تقدم ورودها فيه ..

ورعاء المقرى للمناسبة فى ايراد النثر لا يقل عنه رعاؤه للتناسب فى ايراد الشعر . فحين روى قصيدة الوزير عبد العزيز الفشتالى النونية التى مطلعها :

همو سلبونى الصبر والصبر من شانى
وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى

---

(١٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٢ .
(١٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٠٤ .

رأى من تمام التناسب أن يروى قصيدة على وزنها وقافيتها لأبى الفتح محمد بن عبد السلام المغربى التونسى نزيل دمشق ، كما روى قصيدة من البحر نفسه والقافية نفسها للوزير لسان الدين ابن الخطيب . وهنا أدرك ان تمام المناسبة قد يكون ناقصا اذا لم يضف الى هذه النونيات نونية أخرى للأديب الأندلسى عمر الزجال . ومهد لروايتها بقوله : (وحيث اقتضت المناسبة جلب هذه النونيات ، فلنضف اليها قصيدة أديب الأندلس الفقيه عمر صاحب الأزجال ، اذ هو من فرسان هذا المجال) . ولم يكتف بهذه المناسبات المتتالية فى القصائد النونية ، بل رأى من كمال الموضوع أن يروى قصيدة ابن زمرك وهى من البحر والقافية نفسها ، ووطأ لذكرها بهذه الكلمات : (وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التى اتفق فيها البحر والروى ، وجرت من البلاغة على النهج السوى ، فلا بأس أن نعززها بقصيدة الرئيس الوزير أبى عبد الله بن زمرك ..) .

وقد كان فى المقرى صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما فضيلة الاطلاع بنفسه على الكتب التى ينقل عنها ، ويروى منها . فلا محل لأن يقال عن الرجل انه (حاول فى أغلب الأحوال أن يضلل القارىء ، فنقل عنه ـــ يعنى عن « المغرب لابن سعيد » ـــ دون أن يسميه مرارا وتكرارا . وأحيانا كان ينقل عنه ويزعم أنه ينقل عن الحجارى فى « المسهب ») [١٨] . فالمقرى

(١٨) مقدمة الدكتور شوقى ضيف لكتاب : « المغرب فى حلى المغرب » ـ طبع دار المعارف ـ ص ١٩ .

أبعد من أن يرمى بمثل هذا الاتهام الظالم ، فقد كان الرجل أمينا فى نقله ، أمينا فى رجوعه الى الكتب . بدليل انه اذا سمع عن كتاب ولم يره يقول ذلك بصراحة وبدون رغبة فى المباهاة بالتكثر فى المصادر . وبدليل أنه قال فى معرض الحديث عن كتاب « شنف السامع بوصف الجامع » — أى الجامع الأموى بدمشق — : ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور بل على بعضه) [١٩] . وبدليل انه يذكر فى ترجمته لابن حيان الغرناطى انه وقف على كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدى (فوجدت فيه ترجمة أبى حيان واسعة ، فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد) .

ومن كان هذا مذهبه فى الاطلاع على الكتب ، والصدق فى بيان ذلك ، فلا حاجة به الى الزعم وتضليل القراء ..

---

(١٩) نفح الطيب جـ ١ ص ٥١٢ .

حافظة قوية

اشتهر شــهاب الدين المقرى بحافظة قوية نادرة . فهو من أولئك الرجال الذين يقرءون المواد العلمية والتاريخية والشعرية والأدبية ثم يعونها فى صدورهم ، ويتدفقون بها فى المناســبات المختلفة سواء أكان ذلك فى دروسهم أم فى الندوات التى تعقد فيها المسامرات والمحاضرات .

ولا تمتاز بالحافظة القوية أرض شرقية أو غربية ، ولكن الملاحظ أن كثيرا من أهل المغرب يمتازون بالحفظ ويعتمدون عليه فى التدوين والتصنيف ، حتى لقد كان الامام الشنقيطى الكبير والصغير من أعاجيب الدنيا فى ذلك .

ولقد استطاع شهاب الدين المقرى منذ اللحظات الأولى من صباه أن يظهر تفوقا عجيبا فى قوة الحفظ ، واشتهر بالزيادة على أقرانه الصغار فى المراحل الأولى لطلب العلم . واستطاع أن ينمى هذه الموهبة فيه وأن يستعين عليها بدوام مذاكرة العلم ومدارسته حتى تكون مسائله دائما قريبة منه .

وأكب المقرى منذ صباه الباكر على الكتب المخطوطة الكثيرة التى كانت تزدحم بها المكتبات الخاصــة فى تلمسان ومراكش وفاس . ولعله أفاد كثيرا من المكتبة الخاصة للسلطان المغربى

أبى المعالى زيدان بن السلطان أبى العباس المنصور بالله السعدى المعروف بالذهبى ، وهو أعظم سلاطين المغرب فى عهد الدولة السعدية . فقد كان السلطان زيدان هذا عالما فقيها مشاركا فى كثير من العلوم متضلعا فيها . وله تفسير على القرآن الكريم اعتمد فيه على ابن عطية والامام الزمخشرى صاحب الكشاف ومن أجلاء العلماء والمفسرين فى المشرق .

ومن طرائف أخبار السلطان زيدان السعدى الذى اتصل به المقرى فى فاس انه كان كثير الجدل فى المسائل ، فلا يقبل الأمور بسهولة تسليم ، ولكنه يناقش ويجادل . وقد حدث له مع الشيخ أبى العباس الصومعى حادثة تدل على حدة طبع هذا السلطان المغربى منذ أوائل شبابه وقبل توليه حكم المغرب . فقد ألف الصومعى كتابا موضوعه يدور حول مناقب الشيخ الولى « أبى يعزى » ، وسماه : المعزى — بضم الميم وفتح الزاى كأنه اسم مفعول من أعزى — فعارضه زيدان السعدى — وكان فى ذلك الحين واليا من قبل أبيه المنصور على مدينة تادلا — وبنى معارضته على انه لم يسمع عن العرب أنهم قالوا : أعزاه بالفعل الرباعى ، ولكنهم قالوا : عزاه بالثلاثى ، أى نسبه . فأصر الشيخ الصومعى على رأيه ولم يرد أن يتجاوزه أو ينزل عنه ، فغضب الأمير زيدان غضبة بلغ من حدتها انه لطم الشيخ على وجهه بالنعل .. فشكاه الشيخ الى والده السلطان المنصور ، فقال له : لو لطمك وهو المخطىء لعاقبته ، أما اذا كان الصواب معه فلا !

والحق ان هذه الفعلة التى فعلها زيدان مع شيخ جليل هى من دفعـات الشباب وحماسته المفرطة الثائرة ، واذا كان الحق — لغويا — معه فما كان له أن يخرج عن طور الاحترام وآداب اللقاء مع شيخ عالم زاهد وقور ، فان مسائل العلم لا تقـرر بالعدوان والقوة ، ولكنها تتضح بالمجادلة الحسنة .

ومن باب الاستطراد هنا نقول ان الشيخ السلاوى صاحب « الاستقصا » يعلق على هذه الفعلة بأن النكسة التى أصابت الأمير زيدان السعدى فى أيام سلطنته بعد وفاة والده كانت من آثار تلك اللطمة .. فقد كان الشيخ الصومعى من رجال الله (ولله تعالى غيرة على المنتسبين الى جنابه العظيم ..) [1] .

وقد كان للسلطان زيدان السعدى هذا مكتبة خاصة حافلة بنفائس الكتب ونوادرها ، وكان المقرى وهو نزيل بفاس يتردد عليها ، ويطالع كتبها ، ويقيد نوادر مسائلها ، ويكاد يعيها فى صدره . ولا شك انها كانت المصدر الذى كان يمده دائما بالتأليف فى الموضوعات النادرة كتواريخ الأندلس ، والمغرب ، وتراجم الرجال الذين لولا المقرى لضاعت سيرهم ، وعميت علينا أخبارهم . ومن سوء الحظ ان تلك المكتبة العظيمة قد اغتصبها قراصـنة الأسبان فى عهد السلطان زيدان نفسه ، فقد غنموا فى بعض الأيام وفى احدى مناوشاتهم مع بلاد المغرب مركبا للسلطان زيدان فيه

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — جـ ٦ ص ٧١ .

أشياء نفيسة نادرة ، من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب فى موضوعات الدين والأدب والفلسفة .

ولم تنفرد المصادر المغربية ـــ وأهمها «الاستقصا» للسلاوى ـــ بذكر هذه الحادثة ، ولكن المصادر الأجنبية تذكرها . ويعلق ولدا الشيخ السلاوى على هذه المسألة قائلين : (قضية أخذ الأصبان ـــ يعنى الأسبان ـــ لكتب زيدان شهيرة فى كتب الافرنج وتواريخهم ، فلتراجع فيها ولابد . والكتب ما زالت محفوظة بخزانة الأسكريال قرب مادريد ـــ أعنى مدريد ـــ وقد دعت الحكومة الأصبانية فى وقتنا هذا وهو ١٣٤٢ ـــ أحد الفرنسوين لجعل برنامج لها ..) [٢] .

ويحدثنا المقرى فى بعض كتبه [٣] عن قوة حافظته قائلا فى فتح المتعال : (وكنت فى حال الصغر أحفظ كثيرا بالنسبة الى أقرانى ، فحدثنى مولاى العم سعيد بن أحمد المقرى أن بعض شيوخه من أهل تلمسان ، كان يطالع الكراس الكبير بسرعة ، فيحفظ ما فيه من وقته من غير تأمل ، ولا بطء ألبتة ، فانكسرت نفسى) ويدلك انكسار نفسه على انه كان غير راض بهذا المبلغ الذى بلغه من الحفظ بالنسبة الى أقرانه ، وانه كان يطمع أن يكون مثل بعض

---

(٢) المصدر السابق جـ ٦ ص ٧٠ .

(٣) فتح المتعال فى مدح النعال . وهو مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥ كما يذكر الأستاذ الحبيب الجنحانى فى كتابه ص ١٢٦ – ٦٠ .

شيوخ عمه من أهل تلمسان فى سرعة الحفظ بأيسر نظر . ولعله بلغ هذا حين كبر ..

ومما يدل على قوة الحافظة عند الشهاب المقرى انه كتب كتابه « نفح الطيب » وهو فى القاهرة بعيد عن كتبه ومكتبته التى خلفها بالمغرب . وحين عرض عليه الأديب الدمشقى المولى أحمد شاهين أن يؤلف كتابا فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب اعتذر أولا من هذا الطلب بأن هذا الغرض غير سهل ، وكان من أسباب اعتذاره : (عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام ، لأنى خلفتها بالمغرب ، وأكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ـــ أى مستحيل الوجود كاستحالة العنقاء) (٤) . ولكن الله أعانه بعد ذلك ويسره لتأليف الكتاب فكان « نفح الطيب » الذى نجد حديثا عنه فى موضع آخر من كتابنا هذا .

ويؤكد المقرى لنا فى غير موضع من كتابه « نفح الطيب » حقيقة تركه لكتبه فى المغرب ، كأنه يريد بذلك أن يمهد لنفسه أسباب العذر فيما قد يكون وقع فى الكتاب من تقصير ! فنراه فى صفحة ٥٧ من الجزء الأول يقول عن كتبه : (وتركت الجميع بالمغرب ، ولم استصحب معى منه ما يبين عن المقصود ويعرب ، الا نزرا يسيرا علق بحفظى ، وحليت بجواهره جيد لفظى ، وبعض أوراق سعد فى جواب السؤال بها حظى . ولو حضرنى الآن

---

(٤) النفح جـ ١ ص ٣٨ .

ما خلفته مما جمعت فى ذلك الغرض وألفته ، لقرت به عيــون ، وسرت به ألباب ..) .

ويشير المقرى الى واقعة ترك كتبه بالمغرب فى غير موضع من كتبه وخاصة « نفح الطيب » . ويظهــر انه كان لا يضن بالحصول على أكثر من نسخة واحدة من الكتاب الواحد . ويحدثنا عن كتاب « المحاضرات » الذى ألفه جده أبو عبد الله محمــد المقــرى ، فيصفه بأنه فيه من الفوائد والحكايات والاشــارات كثير ، ثم يعقب على هذا بقوله : (وقد ملكت منه بالمغــرب نسختين) (٥) .

ويحدثنا فى موضع آخر من النفح عن تملكه بمدينة فاس لمجلد ضخم مخطوط بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم جده ، وسماه بالزهر الباسم (وأطال فيه فى مدح مولاى الجد والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه . ولم يحضرنى الآن لكونى تركته مع جملة كتبى بالمغرب) (٦) .

ولا يكاد يخلو موضع فى النفح من الاشارة الى ما تملكه المقرى من كتب فى المغرب أو اطلع عليه منها . ففى خلال ترجمته للوزير أبى عبد الله بن الحكيم الرندى يشير الى حسن خطه وتملكه بعض كتبه قائلا : (وخط الوزير ابن الحكيم فى غاية الحسن . وقد رأيته مرارا ، وملكت بعض كتبه) (٧) . وفى ترجمته

---

(٥) نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٨ .
(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٧٤ .
(٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠ .

لابن الأزرق الغرناطى الأندلسى أخذ يعد تصانيفه الكثيرة ، حتى اذا بلغ كتاب « روضة الأعلام ، بمنزلة العربية من علوم الاسلام » وصفه بقوله انه (مجلد ضخم فيه فوائد وحكايات ، لم يؤلف فى فنه مثله ، وقفت عليه بتلمسان) [٨] .

ومن دلائل قوة الحفظ عند المقرى وكثرة محفوظه ما يورده فى المعنى الواحد أو الغرض الواحد من أشعار يستشهد بها لشعراء كثيرين من أهل المشرق والمغرب . ففى معرض الحديث عن مواقف الوداع والتوديع للأهل أو الأوطان أو الأحباب نراه يورد شعرا كثيرا لكثير من الشعراء ، كأن هذه الأشعار كانت على أطراف أصابعه . فيستشهد بشعر للشريف الرضى ، والوزير ابن عمار ، والفزارى ، والصابى ، والمهذب ابن أسعد الموصلى ، والكمال التنوخى ، وابن الأثير ، والصفدى ، وابن نباتة السعدى ، وسميه ابن نباتة المصرى وغيرهم . وكل هذا الشعر « الوداعى » قد جاء به وهو يودع دمشق عائدا الى القاهرة .. !

وما أكثر المناسبات والموضوعات التى يروى فيها المقرى سيلا من الشعر لغيره ، كمدح مصر ، ومدح الشام ، ومدح مكة والمدينة ، وشعر الغربة والحنين ، وشعر الزيارات للمزارات وغيرها ..

والمقرى فى روايته للشعر يرويه باللفظ كما قاله الشاعر الأصلى أو كأقرب ما يكون الى قوله ، فاذا خانته الذاكرة ــ وهى

(٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٩ .

خوانة فى بعض الأحيان ـــ فانه يلجأ الى رواية الشعر بالمعنى ! ولعله أخذ ذلك من طريقة أهل الحديث النبوى فى روايته بالمعنى .. ومن حسن الحظ ان المقرى لم يلجأ الى هذه الطريقة الا فى مرات قليلة معـدودة ، كالأبيات الثلاثة التى رواها لعـالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمى مخاطبا بها سلطان الأندلس . فقـد عقب على الأبيات قائلا : (وهذا البيت الثالث نسيت لفظه ، فكتبته بالمعنى والوزن ، اذ طال عهدى به . والله تعالى أعلم !) [٩] .

وحين يلجأ المقرى الى رواية قصيدة لشاعر فى غرض معين ثم لا تسعفه الذاكرة بأبيات القصيدة كلها ، فانه يكتفى بايراد ما يحفظه مشيرا الى انه لم يحضره من هذه القصيدة الا القدر الذى استشهد به ، كما فعل فى مرثية ابن حمدون الأندلسى المالقى للامام العز بن عبد السلام ، فقد ذكر منها أبياتا أربعة لاغير، ثم عقب على ذلك قائلا : (وهى طويلة ، ولم يحضرنى سوى ما ذكرته)[١٠] .

ولقد انهالت على المقرى فيوض من الأخبار والنوادر والأشعار فى خلال مجالسه الأدبية بدمشق التى كان يتجاذب فيها أطراف الأحاديث مع أدباء الشام وشعرائه عن الأندلس وأعلامها وخاصة لسان الدين بن الخطيب . وكان الحديث ينجر بالسامرين والمنتدين الى فنون من القول وأعاريض من الكلام فيتصرف فيها المقرى بما وعته حافظته ، وما يسعفه به محفوظه . وقد أدهش أدباء

---

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ .
(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٣ .

دمشق وعلماءها بهذا الفيض الذى يصفه هو بأنه فيض من الله حيث يقول : (فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجرى على لسانى من الفيض الرحمانى ، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب السلمانى صب الله عليه شآبيب رحماه ، وبلغه من رضوان الأمانى ما تثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه) .

ولا شك أن مرويات المقرى وحفظه العجيب وقوة ذاكرته على استحضار ما يريد من الأخبار والاستشهاد قد لفتت أنظار مستمعيه فى مجالسه ودروسه وأسماره ، حتى لم يجد بعضهم بدا من الاشارة الى ذلك وابرازه كظاهرة تستحق أن يشار اليها وينوه بها . ومن هؤلاء مفتى الشام الشيخ عبد الرحمن العمادى الذى نظم فى مدحه قصيدة يقول فيها :

شمس هدى أطلعها المغرب وطار عنقاء بها مغرب
فأشرقت فى الشام أنوارها وليتها فى الدهر لا تغرب !
أعنى الامام العالم المقرى أحمد من يكتب أو يخطب

الى أن يقول وهو بيت القصيد ومحل استشهادنا :

درس غريب كل يوم له يملى ، ولكن حفظه أغرب

فهنا خصيصة لم يجد العمادى من الانصاف أن يسكت عنها وهو فى معرض تعداد مزايا الممدوح . ولم ينفرد مفتى الحنفية بدمشق بالاشارة شعرا الى شدة الحفظ عند المقرى ، فهناك

الأديب الشاعر المولى أحمد شاهين الذى أخذ يودع المقرى يوم ازماع رحيله عن دمشق بقصيدة يقول فيها :

أغنى وجـودك وهو عين الدين عن
علاّمة الدنيـــا « لسان الدين »
انظره تستغنى به عن غــــيره
والى العيـــان ارغب عن المظنون
تلقى علوم النـــاس فى أوراقهم
وعـــلومه فى صـدره المشحون

وهناك الأديب الدمشقى ابراهيم العمادى يستدعى المقرى لأجازته شعرا فيقول :

فازت دمشق الشــام بالمقرى   الألمعى اللوذعى العبقـــرى
علامة العصر بلا مفتــــرى   وواحـــد الدهر بلا ممترى
جامع عـــلم بث امـلاءه   بالشام مــلء الجامع الأكبر

وقد جعلت كثرة المحفوظ من شهاب الدين المقرى حافظا راويا جامعا أكثر منه باحثا محققا . واذا كانت هذه مما لا ترجح كفة الميزان عند المقرى المحقق ، فانها بلا شك تعد فى جانب حسناته من حيث انه أمدنا بحصيلة هائلة من المعارف والأخبار الأندلسية والمغربية لولا روايته وحفظه لضاعت من أيدينا . ومن هنا كانت قيمة كتب المقرى كلها . فهى ليست كتبا للرأى والدرس والتحليل،

ولكنها ذخيرة حافلة ومنبع خصيب لكثير من الأخبار والأشعار . وتلك قيمة يهون بجانبها ما ضاع من التمحيص والتحقيق عنده .

فالمهمة الأولى عند المقرى ، كما كان يتصورها بحسه وذوقه الخاص ، هى أن يروى الأخبار بصرف النظر عن تحقيقها ومقابلة النصوص بعضها ببعض . ولا بأس أن يتكرر الخبر أو تتكرر النقول أكثر من مرة ، لأن الرجل معنى بالنقل والرواية لاغير . ومن هنا كانت قراءة كتب المقرى وخاصة النفح والأزهار تحتاج الى ذاكرة قوية قريبة من ذاكرة الرجل نفسه ، لأن الأخبار تتزاحم على القارىء بصورة قد يفقد معها التركيز على الموضوع الواحد .

وهذه الطريقة : طريقة الاتتجاع — أو النجعة — فى رواية الأخبار (وهى غير طريقة التركيز) قد لا تلائم كثيرا من الناس ، وقد أحس المقرى نفسه بما قد تعاب به هذه الطريقة وما يوجه اليها من سهام النقد . فأشـار اليها فى مقدمة كتابه « أزهـار الرياض » قائلا [11] : (وكثيرا ما خرجت من الشىء الى ما يناسبه ويدانيه ، وربما أبعدت النجعة ، ثم وقعت الأوبة والرجعة ، على رغم أنف قالى ذلك وشانيه ، وقربت بذلك كله شاسعا ، كى تسهل مئوتته على معانيه ..) .

ومما يوضح لنا قضية ابتعاد المقرى عن التحقيق والتمحيص لمجافاة ذلك لطبعه فى الرواية وذوقه فى الحفظ والنقل — ما رواه من أسباب انتشار مذهب الامام مالك فى الأندلس . فلم يكن له

---

(١١) أزهار الرياض — ج ١ ص ١٥ .

فيه رأى خاص ، ولا اتجاه معين ، ولكنه اكتفى بنقل كلام قاله الحافظ ابن حزم الأندلسى من (أن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلى قاض فى أقطار الأندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به) . ويعلق المقرى على هذا الخبر الذى رواه قائلا : (وذكرنا فى غير هذا الموضوع قولا آخر فى سبب انتشار مذهب الامام مالك بالأندلس ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر) [١٢] .

فاذا عدت الى الموضع الآخر من « نفح الطيب » الذى يشير اليه رأيته ينقل فى الجزء الثانى منه كلاما فى هذا الموضوع يقول فيه : (واعلم ان أهل الأندلس كانوا فى القديم على مذهب الأوزاعى وأهل الشام منذ أول الفتح . ففى دولة الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل — وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين — انتقلت الفتوى الى رأى مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا بل والمغرب ، وذلك برأى الحكم واختياره . واختلفوا فى السبب المقتضى لذلك . فذهب الجمهور الى أن سببه رحلة علماء الأندلس الى المدينة ، فلما رجعوا الى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره فأعظموه كما قدمنا ذلك . وقيل ان الامام مالكا سأل بعض

---

(١٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ .

الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصف له سيرته ، فأعجبت مالكا ، لكون سيرة بنى العباس فى ذلك الوقت لم تكن بمرضية ، وكان لما صنع أبو جعفر المنصــور بالعلوية بالمدينة من الحبس والاهانة وغيرهما ما هو مشهور فى كتب التاريخ ، فقال الامام مالك رضى الله تعالى عنه لذلك المخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم ، أو كلاما هذا معناه . فنميت المسألة الى ملك الأندلس مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناس عــلى مذهبه وترك مذهب الأوزاعى . والله تعالى أعلم) .

وأنت ترى من هذين الخبرين فى موضعين بعيدين ، وفى جزءين مختلفين من « نفح الطيب » ان قضية انتشــار المذهب المالكى فى الأندلس والمغرب لم تكن الموضوع الرئيسى ، ولا المقصود بالمعالجة والدراسة والبحث ، ولكنها جاءت عرضا فى مناسبتين مختلفتين ، فجاءت فى الجزء الأول ، فى موضع التعريف بالفقيه يحيى بن يحيى ، فى الباب الخاص بالتعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق . وجاءت فى الجزء الثانى فى الباب الخاص بنبذة مما من الله به على أهل الأندلس من توقد الأذهان .. وهكذا ترى أن الكلام عن انتشار المالكية فى الأندلس متقطع ، وانه ذكر مرة ومعه سبب ، وذكر أخرى ومعه سببان ، فهناك ثلاثة أسباب لم يحققها المقرى ولم يزنها بميزان الفقيه المؤرخ ، وخرج من ذلك كله بقوله : والله أعلم .

على اننا لا نظلم الرجل فنجرده من التحقيق فى مؤلفاته جملة ،

فهو أحيانا يميل الى التحقيق فى بعض المسائل ، كما فعل فى تحقيقه للمكان الذى دفن فيه القاضى ابن العربى حيث يقول : (ووقع فى عبارة ابن الزبير تبعا لجماعة ، انه — يعنى ابن العربى — دفن خارج باب الجيسة بفاس ، والصواب خارج باب المحروق ، كما أشبعت الكلام على ذلك فى أزهار الرياض) [١٣] . وكما فعل فى تحقيقه للشعر الذى رواه منسوبا الى الشيخ محيى الدين بن عربى الصوفى فى ضابط ليلة القدر ، فقد روى الأبيات ثم علق عليها قائلا : (قلت : لست على يقين من نسبة هذا النظم الى الشيخ رحمه الله تعالى ، فان نفسه أعلى من هذا النظم ، ولكنى ذكرته لما فيه من الفائدة ، ولأن بعض الناس نسبه اليه) .

واذا كان التحقيق هنا لم يبلغ مداه حتى يرد الشعر الى قائله الحقيقى ، فانه على كل حال قد أثبت فى هذا الكلام ملكته الناقدة ، وذوقه الأدبى ، وتذوقه الجمالى حين قرر أن نفس ابن عربى أعلى من ذلك النظم الذى رواه [١٤] .

ومن تحقيقات المقرى فى الشعر ما علق به على قصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرندى النونية التى قالها فى رثاء الأندلس ، والتى مطلعها :

لكل شىء اذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش انسان

---

(١٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

(١٤) المصدر نفسه ص ٤٠١ .

فبعد أن فرغ من تدوين القصيدة كاملة على وفق روايته علق عليها قائلا : (انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته . ومن له أدنى ذوق علم ان ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة . وغالب ظنى ان تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، اذ كان أهلها يستنهضون هم الملوك بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف ، زاد فيها تلك الزيادات . وقد بينت ذلك فى أزهار الرياض ..) [١٥] .

فأنت لا ترى هنا رواية قصيدة فحسب ، ولا ترى نقدا للشعر المدسوس على القصيدة مرده الى الذوق الأدبى والحس بالجمال الفنى وحسب ، بل ترى ـــ فوق ذلك ـــ سلوكا فى مسالك التحقيق التاريخى ، فان غرناطة أخذت بعد موت الرندى ، وكذلك بقية المواقع المزيدة ، مما يدل على ان الأبيان الزائدة مضافة الى القصيدة بعد وفاة قائلها..

ونلاحظ على المقرى فى روايته للأخبار وتراجم الرجال انه قد يجد الرواية عن كتاب معين ناقصة ، أو ان الموضوع بها لم يستوف حقه ، ولم يشرف على تمامه ، فليجأ الى (تعزيز) الرواية بما يحضره

---

(١٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٩٥ .

من أخبار أخرى حول هذا الموضوع . كما فعل — مثلا — فى ترجمته للقاضى أبى بكر بن العربى الفقيه ، فانه لما وجد ما نقله ورواه عن ابن سعيد غير واف ولا موف بحق الرجل عاد فعززه بما حضره من التعريف به [١٦] .

وهكذا لم يكن المقرى راويا وجامعا على اطلاق القول ، ولكنه كان يميل الى التحقيق فى بعض الأحايين ..

---

(١٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٦ .

بين الجد والهزل

ان نظرة واحدة على كتاب نفح الطيب للمقرى تحمل على الحكم بأن الرجل لم يكن متزمتا شديد التزمت ولا متحرجا كثير الحرج . فهو على علمه وفقهه ، وروايته للحديث ، واملائه لصحيح البخارى تغلب عليه ناحية الظرف والدعابة والنكتة المستملحة ، والمعابثة . ويغلب على صاحبنا طبع الأدباء ، وظرف الشعراء ، أكثر مما يغلب عليه سمت العلماء ، وتزمت الفقهاء . فهو رجل دين ، وشيخ رواية ، وصاحب دراية . ولكنه فى الوقت نفسه رجل يطرب للمجالس الأدبية ، ويهتز للنكتة حتى ولو كانت لاذعة ، ولكنه لا يطلق لنفسه العنان فى المعابثة ، مخافة أن يجره ذلك الى الخروج عن الوقار . وهو لا يحب المجتمع المتزمت ، ولا الندوات الجافة ، وآثر عليها فى دمشق ندوات الأديب الشاعر الظريف أحمد شاهين وثلته .

ويخيل الى أن الرجل كان حائرا بين سمت الفقيه العالم ، وسمة الأديب الظريف ، وكان حريصا على دور العالم أكثر من حرصه على دور الأديب . ولعل مجالس تلمسان ، ومراكش ، وفاس ، والقاهرة ، والحجاز ، والقدس لم ترقه لما فيها من صرامة وجد ، فأحب مجالس دمشق الأدبية ، وندواتها الشعرية ، حيث كانت

تدور الأحاديث ، والأخبار ، والفكاهات . وحيث كان يحلو السمر ، والمطارحة . وحيث كان رواد تلك المجالس الدمشقية يتخففون كثيرا من التوقر المصنوع ، ويرسلون النفس على سجيتها ، ولا يبالون بالنكتة أين تقع ، وعلى من تقع !

وعاد المقرى بعد زيارة دمشق القصيرة الأمد ، وبعد انطلاقاته السحرية فيها ، الى القاهرة ومجالس علمها وفقهها . وعكف فى القاهرة على تأليف « نفح الطيب » ووجد فيه متنفسا لما فاته من المتع التى كان يصده عنها مركزه فى الفقه ، ومحله فى العلم ، ومنزلته فى الحديث .

وهنا ترى الرجل ينزع منزع التلذذ بالهزل وذكره ، ويميل الى رواية أخبار المجون ، وحكايات الأحماض ، ولا يتورع عن الاغراق فى روايتها ، والتكثر من ذكرها ، كأنه يجد فى ذلك اللذة التى ظل حياته محروما منها .

ولا بأس بأحاديث المجون ، وأحاديث الهزل اذا كانت من « أديب » لا يرى فيها بأسا ، بل يجد فيها ارضاء لنزعة خاصة . فالجاحظ لم ير بأسا فى بعض رسائله — كمفاخرة الجوارى والغلمان — أن يصرح بأدب مكشوف تستحى الأذن المتزمتة أن تستمع اليه . وذكر فيها من الألفاظ والعورات والأدب الجنسى المفضوح ما لا يزال يستغرب صدوره من مثله . وعلل لذلك بتعليلات لا مجال هنا للحكم عليها . ولم يكتف الجاحظ بما ذكره فى تلك الرسالة من فاحش اللفظ ، وجارح التعبير ، بل رأى أن

يضيف اليها (مقطعات من أحاديث البطالين والظرفاء ، ليزيد القارىء لهذا الكتاب نشاطا ، ويذهب عنه الفتور والكلال ..!)[1].

وكذلك كان « العاملى » صاحب كتابى الكشكول والمخلاة ، فقد كان عالما مفسرا فقيها محدثا ، ولكنه لما تصدى لتأليف الكشكول غلبت عليه نزعة الأديب ، وانفلت من تزمت العلماء وتوقرهم ، فروى فى كتابه ألوانا من المجون والهزل والاحماض ، التى يستغرب صدورها من عالم فقيه ..

ولقد أحس المقرى بما روى فى نفح الطيب من هزل ومجون ، فطلب من الله (أن يصفح عن زلاتى ، ويسامحنى فيما أوردت فى هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذى جرت المناسبة اليه والحديث شجون . وما القصد منه الا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الأسمار ويزجون ..) [2] .

ويصرح المقرى هنا بأن الذى ساقه الى ذكر الهزل والمجون فى كتابه هو المناسبة ، وشجون الحديث ، وترويج القلوب . ولكنا لا نزال على رأينا بأن المقرى العالم الفقيه المحدث لم يكن له أن يحشو كتابه بحكايات وأشعار وأخبار فى الأحماض والمجون لم يكن هناك محل لها ، ولا داع اليها ، مهما كانت المناسبة أو شجون الحديث .

---

(١) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ج ٢ ـ ص ١٢٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٦٣ .

وقد يلتمس للرجل العذر بأنه أديب فى كتابه هذا ، لا فقيه ، وأنه جعل من كتابه موسوعة شاملة حافلة ، لا تتسع للأندلس وأخبارها وتراجم رجالها وذكر بلدانها فحسب ، ولا تتسع لترجمة الوزير لسان الدين بن الخطيب فقط ، بل تتسع أكثر من هـذا لطائفة كثيرة من الأسمار والمحاضرات والأخبار الأدبية ، والمفاكهات والمعابثات ، التى لم ير بأسا فى وضعها بجانب الشعر الدينى ، أو الشعر الصوفى ، أو المدائح النبوية ، أو الأحاديث الشريفة ، أو الآيات الكثيرة من كتاب الله ..

وما أشبه المقرى فى هذا « بالراغب الأصفهانى » صاحب كتاب « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء » الذى لم يتورع فيه من أن يذكر أخبارا وأشعارا خليعة ماجنة متهتكة ساخرة قليلة الحياء ، بل معدومة الحياء .. والذى يصرح بتسويغه للهزل قائلا : (ومن لا يتحلى فى مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة ..) .

وليست المسألة مسألة عصر وشيوع المجانة فيه ، وغلبة الفحش عليه . فالجاحظ كان فى القرن الثالث ، والراغب الأصفهانى كان فى القرن الخامس ، ومع هذا رويا من الهزل ما لا يقل عن القرن العاشر أو الحادى عشر اللذين قد يقال ان الفساد والانحلال الخلقى قد شاعا فيهما وغلبا عليهما .

وما كان أغنى المقرى عن أن يخلط فى كتابه نفح الطيب بين الجد والهزل ، وأن يمزج فيه عملا صالحا وآخر سيئا ! فكتابه

هذا ليس كتابا فى الأسمار والمحاضرات والنوادر والأخبار حتى يباح فيه رواية الهزل والمجون ، ولكنه دراسة للأندلس من ناحية ، ودراسة وسيرة للسان الدين بن الخطيب من ناحية أخرى ، فما الحاجة فيه الى التكثر من الهزل الذى لم يفتأ يعتذر منه فى غير موضع ؟ . حتى لتراه يسأل الله أن يكون ما طلبه فيه من الهزل مكفرا بالجد المذكور فيه [٣] .

وقد بلغ من ادراك المقرى لشناعة ما أورده فى نفح الطيب من الفحش والمجون ما عقب به على شعر رواه للمطرف ابن عبد الرحمن يصرح فيه الشاعر بأنه أفنى عمره فى الشرب والوجوه الملاح والنشوة ولم يستمع الى صوت المؤذن وهو يدعو الى الفلاح .. ويقول المقرى فى تعقيبه : (والعياذ بالله من هذا الكلام ، وحاكى الكفر ليس بكافر !) [٤] . على أن استعاذة المقرى بالله هنا ليست من فحش الشاعر ، ولكن من انصرافه عن الاستماع الى داعى الصلاة والفلاح !

ويحس المقرى مرة أخرى بشناعة ما رواه من أخبار الهزل وأشعار المجون — وخاصة الأشعار الغلامية — فيقول شبه معتذر : (والله سبحانه يسمح للجميع ، فى هذا الغزل الشنيع ، ويصفح عنا فى ذكره ، انه مجيب سميع !) [٥] .

على أنه — غفر الله له — كان له منادح واسعة عن هذا

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٨٧ .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

الاعتذار ، بالسكوت جملة عن ذكر هذه الأخبار والأشعار ..

ثم ما هذا الشعر المفضوح الذى يرويه المقرى مما قالته ولادة فى الشاعر ابن زيدون ؟ لقد كان أولى بالمقرى أن يتنخل ويتخير ، وأن لا يجمع كل شىء كحاطب ليل ، فيأتى فى شعر ولادة من صريح ألفاظ العورات والسوءات ما يستحى منه أرباب المروءات ؟ (٦) .

ثم ما هذا الشعر الماجن المفحش الذى يرويه صاحبنا للأعمى التطيلى ، الشاعر المشهور ، هاجيا زنجيا فاسقا مغرما بالغلمان ؟

ان المقرى معذور فيما رواه فى نفح الطيب من هزل ومجون ، فهو لم يخرج على سبيل أسلافه من العلماء الذين لم يتحرجوا من رواية هذا الكلام ، فقد كان ابن قتيبة ــ وهو مفسر لكتاب الله فاهم لتأويل مشكله ــ يدخل المفاكهات والمزاحات فى بعض كتبه ــ وخاصة عيون الأخبار ــ ويعلل ذلك بالترويح عن القارىء من كد الجد ، وأتعاب الحق ، فان الأذن مجاجة ، وللنفس حمضة . وقد كان ابن قتيبة فاهما تمام الفهم ، ومدركا تمام الادراك لاختلاف ميول الناس بين الجد والهزل ، فأحب أن يجعل من كتابه معرضا للاثنين حتى يأخذ منه القارىء ما يوافق ميله ، ويصادف هواه . وعبر عن ذلك فى عبارة بليغة قائلا : (واعلم أنك ان كنت مستغنيا عنه ــ يعنى عن المزح ــ بتنسكك ، فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج اليه ، وان الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه

---

(٦) المصدر نفسه ص ٤٤٨ .

توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل اليه معك ..) [٧] .

ولقد استأنس ابن قتيبة فى جواز ايراد الهزل والافصاح بذكر العورات فى كتابه ، بما أثر عن أبى بكر ، وعلى بن أبى طالب، بل بما أثر عن النبى من هذا . ولقد سار المقرى فى الدرب نفسه ، فاستأنس فى مروياته عن جواز الافصاح بذكر ألفاظ العورات وما اليها بما أثر كذلك عن عبد الله بن عباس !!

ولم تغب كل هذه المأثورات ، عن العلماء والفقهاء الذين أجازوا روايتها فى مصنفاتهم ، بل كانت هى حجتهم فى التوسع فى الموضوع وفتح الباب على مصراعيه ، كما فعل الجاحظ ، والراغب الأصفهانى ، والعاملى ، والأبشيهى ، والمقرى فى القديم ، وأحمد فارس الشدياق فى الحديث .

ولهذا لم يجد صاحبنا المقرى حرجا فى ايراد هذا السيل من المجون والهزل فى كتابه نفح الطيب ، ولم يجد غضاضة ولا مأثما فى أن يلتقى فى هذا الكتاب الورع بالفسق ، والتدين بالفحش ، والتصون بالمجون ، أو فى أن تقع موعظة حسنة ، ونصيحة خالصة فى صفحة ، ثم يعقبها فى الصفحة التالية حكاية ماجنة ، أو شعر مكشوف . ولعله فى هذا كان ينظر الى ما قاله ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار : (وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة ، تختلف فيها مذاقات الطعوم ، لاختلاف شهوات الآكلين ..) .

---

(٧) عيون الأخبار ـ المقدمة ص . ل .

المدح النبوى

لقد جمع المقرى بين الكتابة والشعر ، فهو كاتب ذو أسلوب معين كما جاء فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب ، وهو شاعر كذلك رويت له قصائد وأشعار كثيرة كما ذكر فى فصل خاص عن الشاعر المقرى .

وتلفت النظر فيما أثر لنا من شعر شهاب الدين المقرى طائفة من القصائد النبوية نظمها الرجل اما توسلا بالنبى حين متع ناظريه بزيارة الروضة الطاهرة فى مدينة الرسول عليه السلام ، واما مدحا للنبى على نحو ما كان يفعل شعراء المدائح النبوية فى العصور المختلفة .

ولقد أطال شهاب الدين المقرى رواية كثير من المدائح النبوية له ولغيره من الشعراء فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » ، وهى مقدمة طويلة أسماها « خطبة الكتاب » على نحو ما كان المؤلفون يسمون مقدمات كتبهم . وأطلق فيها لقلمه العنان متنقلا بين ترجمة لسيرته ، وذكر لرحلته من المغرب الى المشرق ، ووصف لزيارته الى الأماكن المقدسة ودمشق ، وتصوير لما كان يعتلج فى صدره من الحنين الى وطنه الذى أرغمته الظروف على مغادرته . وكأن المقرى قد أحس بأن ما رواه من شعر المدح النبوى فى خطبة النفح قد زاد فى الطول

على ما قد تحتمله مقدمة كتاب ، فاستدرك ما قد يثار من اعتراض على هذه الاطالة قائلا : (وربما يقول من يقف على سرد هـذه الأمداح النبوية : الى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة والروية ، فأنشده فى الجواب قول بعض من أم نهج الصواب :

لأديمـن مديح المصطفى فعل من فى الله قوّى طمعـه
فعسى أنعم فى الدنيـا به وعسى يحشرنى الله معه ..)

وقد نسب شهاب الدين المقرى شعر المدائح النبوية الذى أورده فى النفح الى أصحابه كعادته دائما فى كتبه التى حشدها بكل طريف من الشعر فى أغراض مختلفة . فاذا غاب عنه اسم الشاعر الذى ينقل عنه ويروى له ، خرج من ذلك بقوله : وتذكرت (قول بعض الوشاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال الى تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة التى تشد اليها الرحال) أو بقوله حين زار المسجد الأقصى وزار محل معراج النبى عليه السلام : (وكان حقى أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموفقين ، وهو مما ينبغى أن تزمزم به الحداة) . ففى هذين الموضعين لم يقل لنا شهاب الدين المقرى من هو الوشاح الذى نقل عنه ، ومن هو الشاعر الآخر الذى عبر عنه بقوله : بعض الموفقين .

وسكوت المقرى عن ذكر أسماء شعراء المديح ، كسكوته عن ذكر أسماء الشعراء الذين يروى لهم شعرا فى أغراض أخرى ولكنه لا يسجل أسماءهم لغيابها عن حفظه ، أو لأنها مما لم يعرف طريقا الى روايتها ونسبتها الى أصحابها .

على أنه كثيرا ما يورد شعرا فى المدح النبوى فى خلال السرد لتنقلاته فى الزيارة دون اشارة الى أنه سيورد شعرا له أو لغيره ، فيأتى شعر المدح النبوى فى أعقاب الجمل النثرية بدون تمهيد له أو اشارة اليه . فلا يدرى القارىء اذا كان هذا الشعر للمقرى نفسه أم لغيره ، كقوله حين زار المشاهد الاسلامية التى بان فيها الحق واشتهر : (ونسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كنا فيه ، وسبق الدمع الذى لا يعارض الفرح ولا ينافيه :

أيها المغرم المشـــوق هنيئا ما أنالوك من لذيذ التـلاقى

قل لعينيك تهملان ســرورا طالما أسعداك يوم الفـراق

واجمع الوجد والسرور ابتهاجا وجميع الأشجان والأشـواق

وامر العين أن تفيض انهمالا وتوالى بدمعهــــا المهراق

هــذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع فى الآماق ؟)

فورود هذا النص الشعرى عقب العبارة النثرية التى تسبقه لا يدلنا على قائله . وقد يكون من باب الاستشهاد الشعرى دون ذكر القائل كما كان يجنح بعض الكتاب وخاصة فى العصور التى ساد فيها الاستشهاد بالشعر فى أثناء الكتابة ، كما قد يكون الشعر للمقرى نفسه ولكنه لم يقل فى التمهيد له بعض العبارات الدالة على أنه من نظمه ؛ مثل عبارة : قلت ، وقولى ، ثم قلت مضمنا ، وغيرها من أمثال هذه العبارات .

ولو أنه كان للمقرى ديوان شعر يجمع أشعاره المتفرقة كلها لكنا استطعنا أن نرد شعر المدائح النبوية فى مقدمة النفح الى

قائله . ولكن ثبت مؤلفات المقـرى المخطوط منها والمطبـوع لا يشتمل على ديوان له مع كثرة ما نظمه من أشعار ، ولا نعرف له غير شعره المتفرق فى ثنايا كتبه الا قصيدته المزدوجة التى جنح فيها الى رياضة القول على شعر الغزل والدعابة المكشوفة والتظرف فى القول . وقد طبعت هذه القصيدة المزدوجة بمصر منذ أكثر من مائة عام .

على أننا نميل الى أن المدائح النبوية التى وردت فى مقدمة « نفح الطيب » دون نسبة الى قائل هى من شعر شهاب الدين المقرى نفسه ، فقد كان من عادة الرجل أن يقحم شعره فى وسط الكلام وتضاعيف القول دون تمهيد لذلك [1] كما صنع فى قصيدته المشهورة التى مطلعها .

سبحان من قسم الحظـــــو ظ فلا عتـــــاب ولا ملامة

وهى قصيدة طويلة تبلغ عدة أبياتها فى النفح مائة بيت وثلاثة أبيـات . وقد تولى المقرى نفسه شرحها فى كتاب يقـع فى أربع كراريس . ولم نطلع على هذا الشرح مطبوعا أو غير مطبوع . ويذكر صاحب كتاب « اليواقيت الثمينة » أنه اطلع على هـذا الشرح . على أن لنا كلاما فى الأبيات الأربعة الأولى من قصيدة :

---

(١) كما كان من عادته أيضا أن يقحم شـعر غيره فى وسط كلامه دون أن ينسبه لقائله كما فى الأبيات النونية التى حشرها فى مقدمة « أزهار الرياض » كأنهـا له مع أنها للأديب لسان الدين بن الخطيب . وتجد تفصيل هـذا فى الباب الخاص بالمقرى الشاعر .

سبحان من قسم الحظوظ ، يجد القارىء الكريم وجه التحقيق فيه فى موطن آخر من هذا الكتاب .

ومن الشعراء الذين استشهد الشهاب المقرى بشعرهم فى المدائح النبوية « عالم الأندلس عبد الملك السلمى المشهور بابن حبيب » القائل من أبيات :

لله در عصابة صاحبتها نحو المدينة تقطع الفلوات !
ومهامه قد جبتها ومفاوز ما زلت أذكرها بطول حياتى
حتى أتينا القبر قبر محمد خص الأله محمدا بصلاة
خير البرية والنبى المصطفى هادى الورى لطرائق لنجاة

ومنهم « الرعينى الغرناطى » القائل :

هذه روضة الرسول فدعنى أبذل الدمع فى الصعيد السعيد
لا تلمنى على انسكاب دموعى انما صنتها لهذا الصعيد ..

ومنهم « كمال الدين ناظر قوص » ، ولعله كمال الدين الأدفوى المصرى صاحب كتاب « الطالع السعيد ، الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » .

ومن الشعر الذى ذكره المقرى فى المدائح والتوسلات النبوية ولم ينسبه لقائل وأغلب الظن أنه له ، قوله :

اليك أفر من زللى فرار الخائف الوجل
وكان مزار قبرك بال مدينة منتهى أملى
فوفى الله ما طمحت له نفسى بلا خلل

فخذ بيدى غريق فى بحار القول والعمل
وهب لى منك عارفة تعرف ما تنكر لى
وتهدينى الى رشدى وتمنعنى من الزلل
وتحملنى على سنن يؤمننى من الوجل
فأنت دليل من عميت عليه مسالك السبل

ومما يميل بنا الى القول بأن المدائح النبوية غير المنسوبة لقائل هى للمقرى نفسه أنه فى قصيدة أو مدحة نبوية خماسية يشير الى أنه لولا تعلق حقوقه ببلاد المغرب لأقام فى رحاب النبى عليه السلام حتى يتاح له أن يموت هناك ويدفن فى أرض البقيع الطاهرة . وفى هذه الخماسية يقول صاحبنا :

مدحى لخير العالمين عقيدتى
ومطيتى ، بل طيبتى ونشيدتى
وتنيجتى ، وهدى اليقين مفيدتى
ولئن مدحت محمدا بقصيدتى
فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

يا خير خلق الله دعوة حائر
يشكو اليك صروف دهر جائر
والله يعلم فى هواك سرائرى
وهو الذى أرجو لعفو جرائرى
متوسلا بجنابك المتأطد

لولا حقـــوق عينت بمغـــارب

لمكثت عنـــدك كى تتاح مآربى

ويكون فى الزرقاء عذب مشـــاربى

حتى أحـــــلى من ثراك ترائبى

وأنال دفنـــا فى بقيع الغـــــرقد

ولكن أمنية صاحبنا لم يكتب له الله تحقيقها ، فقـــد مات بالقاهرة ودفن فيها .

ويعترف شهاب الدين المقرى ـــ على كثرة ما نظمه من شعر فى أغراض من القول مختلفة ـــ بأن الشعر قد يكون فى بعض الحين كذبا ، بل كذبا صراحا . الا مدح الرســـول فانه حق ، اذ لا سبيل لدخول الكذب عليه وتلبس الباطل به . فالمادحون للأحياء قد يكون فى مدحهم شوائب من الكذب الذى تنال به الزلفى الى الممدوح ، ويلتمس المال أو التقرب عنده ، وهى أعراض دنيوية زائلة . أما مدح النبى فغاية المادح منه أن ينال به رضى الله ورضوان الرسول ، وهى غاية لا تنال بالكذب وعـــدم الصدق فى المديح . ويقول المقرى فى هذا الصدد : (واذا كان القريض فى بعض الأحيان كذبا صراحا ، والموفق من تركه والحالة هذه رغبة منه وله اطراحا ، فخيره ما كان حقا ، وهو مدح الله ورسوله ، وبذلك يحصل للعبد منتهى سوله) .

وأرجو أن لا تفوت القارىء الكريم هذه السجعات فى هذا الكلام ، وهى سجعات يقدم لها المقرى ويؤخر فى الألفاظ والحروف

ومتعلقاتها ، استجلابا لها وانتهاء اليها . كما فى سجعة (رغبة عنه وله اطراحا) فهى سجعة قدمت فى نسق الكلام فجاء على غير نسقه ، وكان حقه ـــ لولا السجعة ـــ أن يقول : (رغبة عنه ، واطراحا له) . وقد عالجنا السجع فى أسلوب المقرى فى الفصل الخاص به من كتابنا هذا ، لولا أن هذه السجعة العارضة اعترضتنا فرأينا هنا أن لا نسكت على قلق موضعها !

وقد يتراوح شعر المدائح النبوية عند شهاب الدين المقرى بين القوة حينا والضعف أحيانا ، وهو مثل شعر أكثر الشعراء الفقهاء الصلحاء يغلب عليه التقليد والمحاكاة ورص الألفاظ ، أكثر مما تغلب عليه المائية الشعرية والطلاوة والقوة وافتراع المعانى الأبكار ، كشعر حسان بن ثابت ، والبوصيرى فى بردته الميمية وهمزيته ، وأحمد شوقى فى نهج البردة . الا أن ذلك لا يمنعنا أن نشير الى مدحة ميمية نبوية للمقرى جيدة الصياغة ، حسنة السبك يقول فيها رحمه الله :

ليس كل القريض يقبله السمـــــــ
ع وتصغى لذكره الأفهـــــــــــام

ان بعض القريض ما كان هـــزءا
ليس شــــــيئا ، وبعضــه أحكام

وأجل الكلام ما كان فى مـــــد
ح شفيع الورى عليه الســــــلام

طيب العـــرف دائم الذكر لا تأ
تى الليـــــالى عليه والأيام
مثـل زهـــر قد شق عنـه كمام
أو كمسك قد فض عنه ختــــام
ليس تحصى صفات أحمـد بالعد
كما لم تحط به الأوهـــــام
ولو ان البحـــار حبر ومافى الأ
رض من كل نابت أقـــــلام
فطويل المديح فيه قصــــــير
وحسام ماض لديه كهـــــام
ولســــان البـــليغ للعى ينمى
وكذا صيب الفصـــيح جهام
كيف يحصى مديح مولى عليه اللـــ
ـه أثنى وذكره مســــــتدام
وله المعجـــزات والآى تبـــدو
لا يغطى وجوههن لثــــــام
فمن المعجزات أن ســـــار ليلا
وجميع الأنام فيه نيـــــام
راكبا للبراق حتى أتى القـــــد
س وفيه رســـل الاله الكرام

فاستووا خلفه صـــــفوفا وقالوا

صل يا أحمد ! فأنت الامـــــام

فعليه من ربه صـــــــلوات

زاكيات مع صحبه وســـــلام

ويلاحظ أن شهاب الدين المقرى كان لا يفتأ فى مواضع كثيرة من كتبه يستشفع بالنبى عليه السلام ، ويتوسل اليه . مما يؤكد أن قلب هذا الرجل قد أشرب بحب النبى . ففى صفحة ٦٣ من الجزء الأول من نفح الطيب يعيد التوسل بالنبى قائلا : (ومن يتوسل بالنبى محمد شفيع البرايا ، السيد السند الأسنى ، فذاك جدير أن يكفر ذنبه ، ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى) .

وهو فوق ذلك كثير الاستشهاد فى كتبه بالمدائح النبـوية لشعراء المدح النبوى . ولا يخص من ذلك كتابا بعينه كنفح الطيب مثلا ، ولكن « أزهار الرياض » مملوء بمثل ذلك . كأن قلب الرجل وعينه موكل بمدائح الرسول ، فلا تقع عينه على مدحة نبوية ، ولا يتعلق خاطره بأبيات فى مدح النبى عليه السلام الا رواها ، ولا يجد حرجا فى اطالة الرواية فى هذا المجال ، بل يجد تلذذا وسعادة قلبية ، مهما كانت حال الشعر المروى من ضعف النظم والتكلف . فانه يتبرك بكلام الصالحين من ناحية ، ويسعد بروايته للمدح النبوى من ناحية أخـرى .. فقد روى قصيدتين لابن العفيف الزينبى فى الصلاة على النبى ومدحه ، ثم ذكر لنا العلة فى اختيارهما مع ظهور التكلف فيهما قائلا : (وانما أثبت هاتين القصيدتين فى

جملة ما سردته ، وان كان فيهما من التكلف ما لا يخفى ، لأوجه : أحدها أن صاحبها من الصالحين يسلم له ، ويتبرك بكلامه . ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه . الثانى : أنها مدح النبى صلى الله عليه وسلم . وعليه من الله أزكى صلاته وأتم سلامه) .

وقد أورد صاحبنا فى جزء من « نفح الطيب » مدائح نبوية كثيرة فى بضع وثلاثين صفحة (٢) . وكانت المناسبة فى روايتها أنه روى لابن الجيان المحدث الراوية الكاتب الشاعر تخميسا فى مدح الرسول يقول فى مطلعه :

الله زاد محمـــدا تكريما وحباه فضلا من لدنه عميمـا
واختصه فى المرسلين كريما ذا رأفة بالمؤمنين رحيمـا

صلوا عليه وسلموا تسليما

وما كاد ينتهى من رواية هذا التخميس النبوى حتى مضى يروى لنا سيلا من المدائح النبوية والتخميسات كمدحة الفقيه أحمد بن عباس المغربى ، ومدحة أبى القاسم الأشبيلى الشهير بابن القصير ، ومدحة العارف بالله ابن العريف ، وقصيدة الشيخ أبى عبد الله بن عمران التى رتب أوائل الأبيات فيها على حروف المعجم ، فالبيت الأول أوله ألف ، والثانى أوله باء ، والثالث أوله

---

(٢) نفح الطيب ج ٤ من ص ٤٤٠ الى ص ٤٧٧ .

تاء وهكذا حتى آخر القصيدة ، وقصيدة ابن موسى القرطبى وهى من المخمسات .

ومن أجمل مروياته فى هذا الباب القصيدة المخمسة للشاعر الأندلسي الأشبيلى ابن سهل الاسرائيلى الذى شرح الله صدره للاسلام . وندع المقرى يقدم قصيدة ابن سهل فى مدح الرسول قائلا : (فمن ذلك قول أبى اسحاق ابراهيم بن سهل الاسرائيلى الأشبيلى ، فان بعضا ذكر أنها من قوله لما أظهر الاسلام ، وهى لا تقتضى رفع الريبة فيه والاتهام ..) ثم أورد المخمسة عقب ذلك ، ومطلعها :

جعل المهيمن حب أحمد شيمة   وأتى به فى المرسلين كريمة
فغدا هواه على القلوب تميمة   وغدا هداه لهديهم تتميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ويلاحظ هنا تعليق المقرى بأن هذه المدحة النبوية من ابن سهل الأندلسى لا ترفع عنه الريبة فيه والاتهام له . فقد رماه بعض المؤرخين بعدم الاخلاص ، وقالوا انه كان يتظاهر بالاسلام ، ولا يخلو من قدح واتهام ، حتى كان أبو الحسن بن سمعة يقول : (شيئان لا يصحان : اسلام ابراهيم بن سهل ، وتوبة الزمخشرى من الاعتزال ..) وماذا يرجو المتزمتون من رجل كان يهوديا ثم أسلم فقال :

تسليت عن موسى بحب محمد

هديت ، ولولا الله ما كنت أهتدى !

على أن مخمسة ابن سهل الاسرائيلى فى مدح النبى لم تذكر فى ديوانه المطبوع ، ولهذا أوردها المقرى بصيغة تدل على تضعيف الرواية حين قال : فان بعضا ذكر أنها من قوله لما أظهر الاسلام .

والحق ان أدنى نظر ، وأيسر حظ من الذوق الأدبى تؤكد لنا أن المخمسة التى رواها المقرى لابن سهل ليست لهذا الشاعر الرقيق العبارة ، فليس أسلوبها من أسلوبه ، ولا ماؤها من مائه ، فهى أقرب الى نظم الفقهاء الصلحاء منها الى شعر الأدباء الظرفاء من أمثال ابن سهل . واذا قورنت هذه المخمسة بشعر ابن سهل فى ديوانه وجدت أنها من واد غير الوادى الذى كان يسيل ابن سهل فى أباطحه . فليس من نفس ابن سهل الأندلسى أن يقول فى مدح النبى :

الشافع المتوسل المتقبل القانت المدثر المزمل
وافى وظهر الأرض داج ممحل فجلا البهيم به وأروى الهيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

وما كانت هذه العبارات التوسلية مما عرف عن ابن سهل بعد اسلامه . ولكن الذى عرف عنه وروى له هو قصيدته العينية الجزلة السهلة التى يقول فيها مادحا النبى عليه السلام :

قلوب عرفن الحق بالحق وانطوت
عليها جنوب ما ألفن المضاجعا

اذا ما انثنوا أو رجعوا الذكر خلتهم
غصونا لدانا ، أو حماما سواجعا

تضيء من التقوى خبايا صدورهم
وقد لبسوا الليل البهيم مدارعا

تكاد مناجاة النبى محمد
تنم بها مسكا على الشم ذائعا

تخالهم النبت الهشيم تغيرا
وقد فتقوا روضا من الذكر يانعا

ولم يكتف شهاب الدين المقرى بما رواه فى « النفح » من مدائح نبوية ، ففى « أزهار الرياض » يروى مدائح أخرى كالقصيدة النونية التى نظمها الوزير لسان الدين بن الخطيب فى مدح الرسول ، وهى مشهورة معروفة ومطلعها :

سل ما لسلمى بنار الهجر تكوينى
وحبها فى الحشا من قبل تكوينى [٣]

وكقصائد ابن زمرك الأديب الشاعر الأندلسى المشهور التى كان ينظمها فى الموالد النبوية التى كان يقيمها سلاطين دولة بنى الأحمر ملوك غرناطة . والحق انها مدائح نبوية قوية رصينة العبارة جيدة السبك تليق بهذا الأديب الأندلسى الكبير . وفى بعضها يقول متشوقا الى زيارة مدينة الرسول :

---

(٣) أزهار الرياض ج ١ ص ٣١٦ .

ألا ليت شعرى هل تساعدنى المنى
فأترك أهلى فى رضـــاه وجيرانى ؟

وأقضى لبانات الفـــؤاد بأن أرى
أعفر خدى فى ثراه وأجفـــانى ؟

اليك رسول الله دعـــوة نازح
خفوق الحشا ، رهن المطامع ، هيمان !

غريب بأقصى الغرب قيّد خطـــوه
شباب تقضى فى مراح وخسران (٤)

يجدّ اشـــــتياقا للعتيق وبانه
ويصبو اليها ما استجد الجديدان !

وكموشحات ابن زمرك النبوية أيضا ، وهى غير قصائده ، ومدائح ابن الصباغ الجذامى ، وكقصيدة « عمرو بن خبازة » الفاسى المغربى اليائية فى مدح الرسول . وهى طويلة تبلغ أبياتها مائة وخمسين بيتا ، وقد وصفها المقرى بأنها « فريدة نبوية » . ويقول ابن خبازة فى مطالعها :

حقيق علينا أن نجيب المعاليـــا
لنفنى فى مدح الحبيب المعانيـــا

ونجمع أشـــتات الأعاريض حسـبة
ونحشد فى ذات الاله القوافيـــا

---

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤ .

وتقتاد للأشــــعار كل كتيبة

لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا

فألسن أرباب البيـــان صوارم

مضاربها تنسى السيوف المواضيا

لنطلع من أمداح أحمـــد أنجما

تلوح فتجلو من سناه الدياجيا .. [٥]

لقد شارك المقرى فى ديوان شعر المدح النبوى بأبيات وقصائد أشرنا اليها هنا وذكرنا بعضها ، ولكنه اشترك فى رواية المدائح النبوية بقدر كبير ، حتى ليصح لنا أن نقول ان كتابيه : نفح الطيب ، وأزهار الرياض يعدان مصدرا حافلا لهذا اللون من المديح .

ولا ننكر هنا ما قلناه قبل صفحات من أن قلب المقرى وعينه كانا موكلين بمدائح الرسول ، فلا تقع عينه على مدحة ، ولا يتعلق خاطره بأبيات الا رواها ، ولكننا نزيد هنا أن الرجل كان حتى فى مجالس التدريس التى يعقدها بالمغـرب ينشد بعض المدائح النبوية كمخمسة ابن الجيان ، وبعض مدائح أهل المغرب (الذين لهم فى منازل الأمداح النبوية مقيل وتعريس) [٦] .

ألست معى ــ بعد هذا كله ــ ان شهاب الدين المقرى كان مشربا قلبه بحب النبى عليه السلام الى حد كبير ؟؟

---

(٥) أزهار الرياض جـ ٢ ــ ص٣٨٣ .

(٦) نفح الطيب ــ جزء ٤ ص ٤٤٣ .

بين التصوّف وكرامات الأولياء

قلب الطرف أيها القارىء الكريم فى « نفح الطيب » بأجزائه الأربعة الضخمة فى طبعتيه القديمتين نجد أن صاحبنا شهاب الدين المقرى يهتم بأخبار التصوف والمتصوفة ، وكرامات الأوليـــاء ، وقبور الصالحين اهتماما واضحا يلفت نظرك ، ويجذب التفاتك . فهو فى مواطن كثيرة من النفح لا يفتأ يذكر رجال التصـــوف وكراماتهم ومقاماتهم ، ويروى كثيرا من أخبـــارهم وغــرائب أحوالهم ، ويحكيها حكاية المصدق لها ، المؤمن بها .

وليس ذلك غريبا على عصر شهاب الدين المقرى من ناحية ، ولا غريبا على صاحبنا وميوله ومواريثه الصوفية من ناحية أخرى . فقد التقى هنا ذوق العصر وميله ، مع ذوق المترجم له وميله . فكان من هذا اللقـــاء هـــذه الظاهرة التى نجدها فى اهتمامات شهاب الدين المقرى التصوفية التى تبدو من الرجل أينما سار ، وحيثما حط الرحال . فهو فى المغرب وفى القاهرة وفى الاسكندرية وفى الحجاز وفى بيت المقدس ، وفى عاصمة الأمويين صوفى بتفكيره وميوله ومعتقده ان لم يكن صوفيا بسلوك الطريق .

واذا كان التصوف قد ظهر بمسلكه الواضح فيما قبل عصر المقرى بقرون ، الا أن القرن العاشر الهجرى الذى ولد شهاب الدين

المقرى فى أخرياته كان مجتلى واسعا لظهـور موجة التصوف الاسلامى العربى على أشدها . فظهرت فى صدر ذلك القرن كثير من الطرق الصوفية المختلفة الطقوس والمراسم وآداب الطريق . ووجد « الملامتية » من أرباب التصوف سبيلا الى الوقوع فى المأثم ، والتباهى بالمعصية . وهؤلاء هم الملامتية المتأخرون فى الزمن ، الذين نزلوا بهذا المذهب الصوفى الى درجة من الفساد والتدهور ، وبعدوا به عن صفائه وطهره القديم .

ويكفى لتصوير العصر الذى ولد فيه شهاب الدين المقرى من ناحية التصوف أن نقتطف هنا ما قاله المؤرخ المغربى أبو العباس أحمد الناصرى فى كتابه المشهور « الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى » حيث سجل بعض « الأمور العظام » التى ظهرت فى صدر المائة العاشرة من التاريخ الهجرى : (ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية ، وأرباب الأحوال والجذب ، فى بلاد الشرق والغرب ، لكنه انفتح به للمستورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق ، متعسر الرتق . فاختلط المرعى بالهبل ، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل ، وصعب على جل الناس التمييز ، حتى بين البهرج والأبريز ، لا سيما العامى الغمر ، الذى لا يفرق بين الحصباء والدر . ويرحم الله الشيخ اليوسى ، اذ قال فى محاضرته ما نصه : « وقد طرق أسماع العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة ، كفحول القادرية والشاذلية رضى الله عنهم ، وكلام أرباب الأحوال فى كل زمان ، فتعشقت

النفوس ذلك ، وأذعن له الجمهور ، وخاضوا فى التشبيه بهم . فما شئت أن تلقى جاهلا مسرفا على نفسه ، لم يعرف بعد ظاهر الشريعة ، فضلا عن أن يعمل ، فضلا عن أن يخلص الى الباطن ، فضلا عن أن يكون صاحب مقام الا وجدته يصول ويقول ، وينابذ المنقول والمعقول . وأكثر ذلك فى أبنـــاء الفقراء ، يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ، ويستتبع أتبــاعه بغير حق ولا حقيقة ، بل لمجرد حطام الدنيا ، فيقول : خدام أبى ، وزريبة أبى ! ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان . ولا يقبل أن يحبوا أحدا فى الله أو يعرفوه أو يقتدوا به ، غيره . واذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ، ويتوعده بالهلاك فى نفسه وماله . وقد يقع شىء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء ، فيضيفه الى نفسه ، فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا . ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه سيرة ودينا يستهويهم به ، ثم يضمن لهم الجنة على مساوىء أعمالهم ، والشفاعة يوم المحشر . ويقبض على لحمة من ذراعه فيقول للجاهل مثله : أنت من هذه اللحمة ! فيكتفى جهلة العوام بذلك ، ويبقون فى خدمته ولدا عن والد ، قائلين : نحن خدام الدار الفلانية وفى زريبة فلان ، فلا نخرج عنها ، وكذا وجدنا آباءنا . وهذا هو الضلال المبين . وهؤلاء قطاع العباد عن الله) .

أرأيت اذن كيف يصور لنا الناصرى المؤرخ ، والحسن اليوسى العالم المراكشى الأديب ، انحراف التصوف عن نهجه القويم فى

القرن العاشر ؟ وكيف بلغ تضليل شيوخ الطريق لأتباعهم ؟ وكيف يختلقون لهم من الخرافات ما يستولون به على عقولهم ، حتى لقد يضمنون لهم الجنة مع سوء أعمالهم ؟ !

في ذلك العصر ولد المقرى الأديب المؤرخ فانحدرت اليه من جده أبى عبد الله محمد المقرى نزعة صوفية ، فقد ذكر الأديب الشاعر الكاتب الوزير لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته لذلك الجد أنه كان « يتكلم فى طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتدوين فيها » [1] .

على أن الوراثة ترتد الى أبعد من هذا الجد القريب ، فان الأب الخامس لجده أبى عبد الله ، واسمه عبد الرحمن بن أبى بكر ابن على المقرى ، هو أول من انتقل من هذه الأسرة من مدينة مقرة الى مدينة تلمسان ، وكان فى صحبة شيخ من كبار شيوخ [2] الصوفية بالمغرب هو ولى الله سيدى أبو مدين شعيب بن الحسن التلمسانى الأندلسى الأصل الذى أقام بفاس ، وسكن بجاية وكثر بها أتباعه ومريدوه كثرة جعلت السلطان يعقوب المنصور يخافه ويخاف على سلطانه منه ، وكان ذلك فى أخريات القرن السادس الهجرى .

فالعصر ومواريث الأسرة والميل الخاص قد تلاقت كلها لتجعل من شهاب الدين المقرى رجلا ذا مزاج صوفى خاص . فهو لا يعرف

---

(١) نفح الطيب للمقرى . ج ٣ ص ١١٢ .
(٢) المصدر نفسه صفحة ١١٠ .

ولا يسمع ولا يمر بكرامة لولى من الأولياء ، أو شيخ من المتصوفة الا ذكرها ، كما فعل مثلا فى ترجمته لأبى العباس المرسى ، وهو يذكر الوافدين على الشرق من بلاد الأندلس ، فيصفه أولا بقوله انه « ولى الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات الكبير المقامات » . ثم يقول عنه فى آخر ترجمته « ان كلامه بحر لا ساحل له ، وكراماته كذلك .. » ، ثم يختم الترجمة بذكر كرامة من كراماته .

ولم يفت شهاب الدين المقرى أن يشير فى مقدمته الطويلة لكتاب « نفح الطيب » الى أنه ذكر فى كتابه « حكايات الأولياء الذين طيب زهر مناقبهم فائح » . مما يدل على أن هذه الحكايات كانت أحد الأغراض الأساسية فى هذا الكتاب الذى أرخ به مؤلفه للوزير لسان الدين بن الخطيب وللأندلس .

وحين يذكر المقرى حكايات الكرامات للأولياء فانه يرمى بذكرها الى تأييد الولاية لهم ، كأن الولاية وحدها لا تكفى مالم تؤيد بذكر كرامة ، أو سرد حكاية . فقد روى حكاية عن الفقيه العالم الطرطوشى صاحب كتاب « سراج الملوك » المشهور ، وهى حكاية تدل على أن صاحب السراج أخبر — على سبيل المكاشفة — بمقتل الأفضل بن أمير الجيوش وزير الفاطميين فى مصر قبل حدوثه بساعات . ويروى شهاب الدين المقرى هذه الحكاية عن المؤرخ الصفدى ، ثم يعلق عليها قائلا : (وهذه الحكاية تكفى فى ولايته) .

وحين يترجم المقرى للشاطبى نزيل الاسكندرية لا يفوته أن يصفه بأنه « أحد أولياء الله تعالى ، شيخ الصالحين ، صاحب الكرامات المشهورة » [٣] .

وقد يبلغ تصديق المقرى للكرامات حدا لا تألفه طبائع الأشياء ، فحين ترجم لسيدى الحسن الحرالى الأندلسى الامام الزاهد الورع روى له بعض الكرامات ، ومنها أن الناس أصابهم جدب ببجاية ، فأرسل الشيخ الى داره من يسوق ماء الى الفقراء ، فامتنعت كريمة [٤] ونهرت رسله ، فسمع كلامها ، فقال للرسول : قل لها : يا كريمة ! والله لأشربن من ماء المطر الساعة ، فرمق السماء بطرفه ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ورفع يديه ، وشرع المؤذن فى الأذان ، ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القرب .. !

وروى للحرالى كرامة أخرى ، ولم يسقها مساق الكرامة فيما عقب به على ترجمته ، بل ساقها خبرا عن حادث حدث كما تمناه الشيخ . فقد وقعت بين الحرالى وبين العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء خصومة بشأن انتقاد العز لتفسير القرآن الذى صنفه الحرالى . وحمل العز على الحرالى حملات شديدة ، ووجه اليه النقد قائلا : أين قول مجاهد فى التفسير ؟ وأين قول فلان وفلان ؟ وبلغ من عنف حملة العز على الحرالى أنه قال فيه : يخرج من بلادنا ، فلما بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم

---

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٨٨ .
(٤) كريمة : جارية كانت أم ولده ، وكانت سيئة الخلق .

أنا ! وقد كان ذلك كذلك ، فقد خرج العز من بلده الشام ، وبقى فيها الحرالى حتى توفى بها سنة ٦٣٧ هـ .

ويتقبل المقرى ما يسمعه ويرويه من كرامات الأولياء قبولا حسنا ، فهو قبول المؤمن بها المصدق لها ، مهما كان فيها من غرابة ومخالفة للطبائع المألوفة ، والسنن الجـارية ، ومهما كان فيها مما لا تجرى أصول الحياة به ، ولا تسير سنن الأشياء عليه . فهو حين يترجم ترجمة وجيزة لأبى زكريا بن هال القرطبى العالم الزاهد ومن رجال القرن الثالث الهجرى ، يروى عن ابن الفرضى المؤرخ عن عباس بن أصبغ (ان ابن هال كانت فى داره شجرة تسجد لسجوده اذا سجد !) (٥) .

ولا يجد شهاب الدين المقرى استحالة فى وقوع الكرامات من الأولياء والزهاد ، فقد روى ما حكاه الشيخ محيى الدين ابن عربى عن نفسه من كرامات معلقا على ذلك بقوله : (وقد حكى الشيخ رضى الله تعالى عنه عن نفسه فى كتبه ما يبهر الألباب ، وكفى بذلك دليلا على ما منحه الله الذى يفتح لمن شاء الباب) . وكأنه بهذا يؤكد ما قاله الصوفى الامام عبد الوهاب الشعرانى عن كرامات ابن عربى : (وأما كرامـاته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات . وقول المنكرين فى حق مثله غثاء وهباء لا يعبأ به) (٦) .

ولقـد زار المقرى قبر محيى الدين بن عربى بدمشـق ،

---

(٥) نفح الطيب جـ ٢ – ص ١٣ .
(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٠٦ .

ولم يكتف بالزيارة بل أكد أنه تبرك بالقبر مرارا ورأى لوائح الأنوار عليه ظاهرة (ولا يجد منصف محيدا الى انكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة) .

ولم يكن قبر ابن عربى هو المزار الوحيد ، والمشهد الفرد الذى زاره شهاب الدين المقرى فى خلال جولاته الكثيرة فى العالم الاسلامى من المغرب ألى المشرق . فقد وفد على « طيبة » مدينة الرسول عليه السلام سبع مرات (واستضأت بتلك الأنوار ، وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما من الله به على فى ذلك الجوار ، وأمليت الحديث النبوى بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع) .

وحين زار المسجد الأقصى للمرة الثانية ـــ بعد زيارته الأولى سنة ١٠٢٩ هـ ـــ انتهز الفرصة فزار مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ، ثم استوعب أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم .

وحين يترجم المقرى لأبى العباس المرسى ـــ رضى الله عنه ـــ يقول ان قبره بالاسكندرية مشهور بآجابة الدعوات ، ويتحدث عنه قائلا : (وقد زرته مرارا كثيرة ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله) فهو لا يقتصر على الزيارة ، ولا يكتفى بالتبرك ، بل يتجاوز ذلك الى الاتجاه الى الله بالدعاء وخاصة عند مزارات الأولياء الذين اشتهرت عند الناس قبورهم بأنها تجاب عندها الدعوات .

واذا كان المقرى قد زار فى دمشق قبر ابن عربى المتصوف ، فأنه قبل وفوده الى المشرق قد زار بالمغرب قبر الامام القاضى أبى بكر بن العربى صاحب المصنفات الجليلة التى منها « أحكام القرآن » ويشير الى هذه الزيارة قائلا : (وقد زرته مرارا ، وقبره هنالك — يعنى فى فاس — مقصود للزيارة خارج القصبة) .

ولم يكن قبر القاضى ابن العربى هو الوحيد الذى زاره المقرى بالمغرب ، فقد زار بمراكش قبر أبى القاسم السهيلى صاحب كتاب « الروض الأنف » فى شرح السيرة النبوية لابن هشام ، وتكررت زيارته لهذا القبر كما تكررت لغيره من قبور الأولياء والعلماء فى المشرق والمغرب . ففى مراكش أيضا يحدثنا المقرى أنه زار قبر العارف بالله ابن العريف الأندلسى الذى تأسى عن كل رزية فى الحياة برزء المسلمين فى فقد النبى عليه السلام حين يقول :

اذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبى
فان لكل نازلة عزاء بما قد كان من فقد النبى

والتعزى على مصائب المرء فى الحياة بمصائب الآخرين قديم فى حدوثه ، وقديم فى التعبير عنه ، حيث أجادت الخنساء فى رثاء أخيها صخر قائلة :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى ..

هذه حفنة من المزارات التى حج اليها مؤرخنا وأديبنا المقرى . وليست هى كل المشاهد التى زارها ، والقبور التى طاف بها ، وتبرك بها ، ودعا عندها ، ولكنها نماذج تؤكد لنا ما قررناه من ميول صوفية عند المؤرخ الأديب الذى صان لنا من تاريخ الأندلس وحديث الشعر والشعراء ، ما لا يقاس بجانب هيكله الضخم حديثه عن كرامات الأولياء ، وحكايات الزهاد والصلحاء ..

مُعرِّف الشرق بالمغرب

يكاد يجمع الذين كتبوا عن تاريخ الأندلس أن كتاب « نفح الطيب » لشهاب الدين المقرى هو من أوثق مصادرنا عن تاريخ هـذا القطر الذى كان من أعظم الأقطار الاسلامية حضارة وازدهارا ، وأنه وثيقة أدبية تاريخية هامة عن الأندلس بعد أن ضاع كثير من الكتب القديمة الخاصة بهذا الموضوع بسبب ما توالى على تلك المملكة من نكبات أصابت العرب والمسلمين هناك فى أيام انحلال دولتهم ، وذهاب ريحهم ، واضطرارهم الى الرحيل عن أوطانهم فى حالة من الذعر لم يملكوا معها أن يحملوا شيئا من متاعهم وكتبهم التى بقيت فى البلاد محجوبة عن أيدى أصحابها وأصحاب ذلك التراث الهائل ، أو أحرقت أو أغرقت فى الأنهار بصورة تتنافى مع مظاهر المدنية والانسانية التى يدعيها الأعداء .

ومهما يقل فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » الذى صنفه بالوراثة ستة من أهل الأندلس أولهم أبو عبد الله محمد الحجارى صاحب كتاب « المسهب » الذى وفد على عبد الملك بن سعيد صاحب احدى القلاع القريبة من غرناطة فى القرن السادس ، فكلفه تأليف كتاب عن غرائب الأندلس وطرائف أهلها من الشعر والنثر ،

فكان كتاب « المسهب في غرائب المغرب » الذى يعد النواة الأولى أو نقطة الانطلاق لكتاب « المغرب فى حلى المغرب » — مهما يقل فى هذا الكتاب الذى أفاد منه شهاب الدين المقرى ونقل عنه كثيرا فى كتابه نفح الطيب ، فان أخباره وتراجم رجاله تنتهى الى ما يقرب من منتصف القرن السابع الهجرى حيث توفى على بن سعيد — — أحد المشاركين فى تصنيفه ، بل آخرهم — فى سنة ٦٨٥ هـ .

ومن هنا نقول ونحن مطمئنون ان كتاب المقرى يزيد على كتاب « المغرب » بما امتد به من الزمن بعد وفاة ابن سعيد حتى عصر المقرى فى القرن الحادى عشر .

ومن هنا تظل قيمة « نفح الطيب » بما حواه من أخبار عن الأندلس لا نجدها فى غيره من الكتب التى ضاع أكثرها . وهو من هذه الناحية قد صان لنا كثيرا من المعلومات والمعارف الأندلسية على الرغم مما وجه اليه من نقد بسبب ما وقع فيه من مآخذ ومغامز ، وبسبب ما فاته من مباحث ومسائل ، كما يقول الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الأول من كتابه « الحلل السندسية »[1].

على أن هذه المآخذ لم تمنع منصفا من تقدير نفح الطيب وانزاله منزلته الجليلة التى يستحقها ، فهذا الأمير شكيب أرسلان نفسه ، وهو أحد علمائنا الأعلام الذين شاركوا فى تعريف الشرق بالأندلس ، يقول : (اعلم أعزك الله أنه لا يزال نفح الطيب

---

(١) الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ـ ص ١٥١ .

من أعظم المراجع التى يعول عليها المحققون فى أخبار الأندلس) .

والمقرى بما صنعه فى كتابه نفح الطيب يعد من رجالنا الذين حاولوا تعريف الشرق بالأندلس وبالغرب بعد أن أوجب طول الشقة بين الناحيتين أن تظل أخبار الغرب العربى الاسلامى فى عزلة عن مسامع المشارقة ، على الرغم مما كان يقوم به أهل الغــرب والأندلس من رحــلات الى الشرق ونزول به ، وأقامــة فيه ، واستيطان له .

فهؤلاء المئات من الأعلام والعلماء والأدباء الذين وفدوا من الغرب والأندلس الى الشرق كانوا أكبر دعاية لبلادهم ، وأعظم عنوان لها ، بما ظهر هنا فى مشرقنا العربى من فضلهم وعلمهم وحفظهم . ولكن هؤلاء الأعلام المتفرقين على مدى العصور ، المتناثرين من عصر الى عصر ، لم يجمعهم سلك واحد فى كتاب واحد يعرف بهم ، ويسجل آثارهم ، ويلمهم فى نظام واحد حيث تستطيع العين أن تقع عليهم بجملتهم لا بتفاريقهم .

وهذا هو الذى فعله شهاب الدين المقرى فى نفحه ، فقد جعل الباب الخامس من كتابه فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق . ولا شك أن هذه التعريفات تؤكد أســباب التعارف والتقارب بين رجال العرب والاسلام عــلى الرغم من اختلاف ديارهم .

واذا كان التعريف ببعض أقطار المشرق الاسلامية ـــ غير العربية ـــ وتواريخ أعيانها وعلمائها قد أفاد كثيرا فى تقــوية

الروابط بين المسلمين ، فان التعريف بالغرب والأندلس ـــ على عروبتهما ـــ مما يؤكد أسباب الارتباط بين أقطار الوطن العربى الكبير .

ومما يدل على الهدف الذى كان يرمى اليه المقرى من التعريف بين المشرق والمغرب ، أنه لم يكتف بالتعريف بالراحلين من الأندلس الى المشرق ، بل أضاف اليهم بابا آخر تناول فيه التعريف بالوافدين من المشرق الى المغرب . وبهذا كانت عملية التواصل بين المشرق والمغرب على أكثر حالاتها توازنا واعتدالا . ولو أنه اقتصر على التعريف من ناحية واحدة لكان فى عمله مقصرا ، وفى ميزانه جائرا .

انك تشعر وأنت تقرأ نفح الطيب للمقرى أنك أمام رجل يؤكد أسباب اللقاء والتواصل والتعارف بين اخوة باعد الزمان بينهم . وما أشد حاجتنا فى مثل ظروفنا الحاضرة الى هذا التعارف والذى صنعه المقرى فى القرن الحادى عشر الهجرى فى هذا السبيل. هو الذى صنعه الأمير شكيب أرسلان فى زماننا هذا ـــ أى فى القرن الرابع عشر ـــ حيث شرع فى تصنيف المعلمة الأندلسية التى تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود ، وأسماها « الحلل السندسية » ، ولكنها مع الأسف لم تتم ، ولم يظهر منها الا أجزاء ثلاثة . ولو أن حلل الأمير شكيب تمت لاستكمل بها عمل المقرى ، وخاصة فيما أجمل الكلام فيه عن تاريخ السنوات الأخيرة من غرناطة ووقوع الأندلس كلها فى أيدى الأسبان . فقد رجع الى

مصادر أفرنجية كثيرة ، وخاصة بعض الكتب الأسبانية التى استعان على ترجمتها ببعض أصحابه من الأسبان وغيرهم .

وقد تقتضى ظروف التعريف بين أهل المشرق من ناحية ، وأهل الغرب والأندلس من ناحية أخرى أن يقع المعرِّف على بعض الفروق والمفارقات بين الجهتين ، فلا يملك نفسه أن يشير اليها ، على سبيل المقارنة ، لا على سبيل المفاضلة . وهذا ما كان يلجأ اليه المقرى أحيانا فى نفح الطيب . وان كان فى كتابه « أزهار الرياض فى أخبار عياض » قد عرض للموازنة بين المشارقة والأندلسيين فى التأليف . وهى موازنة لم تكن من كلامه ، وانما كان ناقلا لها عن « بعض التعاليق لأحد المتأخرين » . فقد وازن هذا المعلق — الذى لم يذكر لنا المقرى اسمه — بين طريقة تدريس « مدونة مالك » عند العراقيين من ناحية ، وعند علماء القرويين فى فاس من أخرى . وهى موازنة تدل على فطنة ودقة وحسن تمييز . ولم يكتف المقرى بنقل هذه الموازنة بين المشارقة والمغاربة فى التأليف ، أو فى تدريس مدونة الامام مالك ، بل أضاف اليها موازنة أخرى نقلها عن المعلق نفسه بين تآليف المشارقة وأهل الأندلس : (وأغلب تآليف المشارقة الايجاز ، لتمكن ملكتهم من التصرف ، مثل كتاب ابن الحاجب ، فى فروعه وفى أصوله ، والخونجى فى المنطق وغيرهما ؛ وان كان الغالب على جل أئمة المشارقة الأطناب ، مثل الغزالى والامام الفخر وغيرهما . وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة ، فى حسن رصف الكلام

وانتقائه ، مثل عبارة القاضى عياض فى تآليفه ، التى لا تسمح القرائح بالاتيان بمثلها ، والنسج على منوالها) [٢] .

ولا يكتفى المقرى فى نقل الموازنة ببلوغ هذا المبلغ ، بل يضيف اليه كلاما نقله عن ملكة العلوم النظرية ، (فهى قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق القرويين والأفريقيين الا بتحقيق الفقه فقط . ولم يزل الحال كذلك الى أن رحل الفقيه ابن زيتون الى المشرق ، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا ، حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم الى تونس ، فانتفع به أهلها ، وانتهت طريقته النظرية الى تلميذه ابن عبد السلام المذكور ..) .

وزاد المقرى فى النقل حول قضية الموازنة بين أهل المغرب والمشارقة فى التعليم والتأليف ، فنقل لنا كلاما عن الامام المؤرخ ابن خلدون ينكر فيه ــ فى المقدمة ــ أنه ظهر فى المائة الثامنة من سلك فى التعليم طريق النظار بفاس ، بل فى جميع أقطار المغرب (لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم ، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة ، بل قصرت هممهم على طريق تحصيل القرآن ، ودرس « التهذيب » فقط ..) .

وحين يترجم صاحب النفح لعالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمى ، فانه يثير قضية معرفة الأندلسيين بالحديث النبوى ، وذلك بمناسبة ما نقله من أن السلمى (لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله ، ويفرق مستقيمه من مختله) ويعلق المقرى

(٢) أزهار الرياض ــ ج ٣ ص ٢٣ .

على ما نقله قائلا : (أما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم . وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين . نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين ، حتى ان فى شفاء « عياض » أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقاد مخرجها ، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها ، كبقى بن مخلد ، وابن حبيب وغيرهما ..) [٣] .

وفى هذه اللقاءات بين أهل الأندلس وأهل المشرق نرى بعض الصور الحية الطريفة التى كان يرويها المقرى فى بعض المناسبات حين الحديث عن تراجم الراحلين من الغرب الى بلاد الشرق . ولا ننسى هذه الصورة التى رواها وسجلها للفقيه الأندلسى يحيى ابن يحيى الليثى الذى روى « الموطأ » عن الامام مالك حين وفوده عليه من الأندلس الى الشرق لتلقى الفقه عنه . فقد ارتحل يحيى الى الامام مالك بالمشرق ، ولازمه ليأخذ العلم عليه . وبينما هو فى مجلسه مع جماعة من أصحابه وتلاميذه اذ قال قائل : حضر الفيل ! فخرج أصحاب مالك كلهم لرؤية الفيل ، ولم يخرج يحيى ، فقال له الامام مالك : مالك لم تخرج وليس الفيل ببلادك ؟ ! فقال يحيى : انما جئت من الأندلس لأنظر اليك ، وأتعلم من هديك وعلمك . ولم أكن لأنظر الى الفيل . فأعجب به الامام مالك ، وقال : هذا عاقل الأندلس !

---

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٧ .

أرأيت أن المقرى — فى سبيل التعريف بين المغرب والأندلس ، وبين المشرق — لم يدع طريقة أو حكاية أو نادرة تمر ببـــاله ألا ذكرها ؟

وكأن المقرى يحس بالفروق بين المغاربة والمشارقة فى بعض وجوه من التعليم والزى والفكر واستعمالات الألفاظ ، وتسمية الأشياء ، فلا يلبث أن يشير اليها ، وهى اشارات لا ترمى الى أبعاد الفجوة بين هذين الطرفين من أطراف العالم الاســلامى العربى ، ولكنها ملاحظات يدركها الرحالون دائما فى أســفارهم وتجولاتهم ، ولا يجدون مناصا من الاشارة اليها . ففى ترجمته للقاضى منذر بن سعيد يذكر أنه تولى « قضاء الجماعة » ، ويحس أن هذا المصطلح غير معروف عند أهل المشرق ، فيقول فى تفسيره : (المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة) . فاصطلاح : قاضى القضاة عندنا بالشرق يقابله فى الأندلس اصطلاح : قاضى الجماعة .

وتتردد عبارة « أهل المشرق » و « المغرب » كثيرا فى كتاب « نفح الطيب » ، وهو تكرار وترداد يقصد بهما توثيق الرابطة لا توسيع الهوة . ألا أنه يدلنا على أن الرجل كان متعصبا لمغربيته محاولا اظهارها فى كل مناسبة . فتحس وأنت تقرؤه بأن هناك فى العالم الاسلامى مشرقيا ومغربيا ، كأنهما جبهتان متقابلتان ، والحق أنهما طرفان لجبهة اسلامية عربية واحدة . ففى ترجمته للصوفى الكبير محيى الدين بن عربى نراه يقول مثلا : (وكان بالمغرب يعرف بابن العربى ، بالألف واللام ، واصطلح أهل المشرق

على ذكره بغير ألف ولام ، فرقا بينه وبين القــاضى أبى بكر ابن العربى) .

ان تعريف المقرى ايانا بالأندلس ومحاسنها ، وبالغرب وأعلامه وعلمائه وأدبائه لم يكن الغرض الأصلى من كتابه نفح الطيب . فقد كان القصد منه ــ كما اقترح عليه المولى أحمد شاهين ــ التعريف بالوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، ولكنه ــ كما يقول لنا فى خطبة النفح ــ حدث له عزم بعد ذلك على زيادة ذكر الأندلس جملة (وبعض مفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها المتناسقة) . فانظر كيف شاء الله أن يستحيل كتاب فى التعريف برجل واحد الى التعريف بعشرات وعشرات من الرجال ؟ ! وانظر كيف استحال التعريف بشخص الى التعريف بأمة كان لها فى الجنوب الغربى من أوربة مقام محمود ، ومكان مشهود . ولكنه استحال ــ مع الأسف ــ الى فردوس مفقود ..

رحم الله أبا العباس شهاب الدين أحمد المقرى ! لقد زاد تعريفنا بأهل وأخوان ، لا ينسينا ذكرهم الزمان ..

بين الغربة والحنين

لقد بدأ المقرى رحلته من الغرب الى الشرق فى أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ كما يقول فى مقدمة « نفح الطيب » (تاركا المنصب والأهل والوطن والألف) . ولا نعلم ـــ ولا نظن أن المقرى نفسه كان يعلم ـــ مدى رحلته هذه الى الشرق ، ولا متى ينتهى أمدها . وأغلب الظن أنه ترك تقدير مداها للأقدار التى تتصرف فى الناس على غير تدبيرهم . واذا كنا نعتقد أن هذه الرحلة كانت فرارا من فتن المغرب الذى تمت محاسنه فى نظر صاحبنا وكملت فضائله ، لولا سماسرة الفتن الذين ساموا بضائع أمنه نقصا [1] فان أمر العودة الى الوطن كان مرهونا بصلاح الأمور فيه ، وعـــودة الاستقرار له ، ورجوع الأمن اليه . وذلك موكول الى الظروف التى كان المقرى يترقبها بعين الملتهف ، ونظر المتشوف .

ولم يكن معقولا ولا مقبولا من عالم فقيه مسلم متدين أن يفد الى مصر ويكون على مقربة نسبية من أرض الحجاز ، ثم لا يشد الرحال الى تلك البقاع الطاهرة التى كانت مهبط الوحى ، ومبدأ الدعوة ، ومنزل الالهام . ومن هنا شمر المقرى عن ساعد العزم بعد الاقامة بمصر مدة قليلة (الى الهم الأعظم ، والمقصد الأكبر ،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٨ .

الذى هو سر المطالب الجليلة ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، والعلمين المنيفين زادهما الله تنويها ، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويها) .

وظل الرجل يتنقل فى الشرق العربى الأوسط جاعلا من القاهرة دارا لاقامته ، ومركزا لرحلاته . فزار مكة خمس مرات فيما بين عامى ١٠٢٧ و ١٠٣٧ هـ ، وزار المدينـة سـبع مرات ، وزار بيت المقدس ، وزار دمشق سنة ١٠٣٧ وعاد منها الى القاهرة فى العام نفسه حيث شرع فى تأليف كتابه نفح الطيب ، ثم عاود الزيارة الى بيت المقدس فبلغه فى أواسط رجب سنة ١٠٣٩ وأقام فيه نحوا من خمسة وعشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة فكان ذلك آخـر عهده بالسفر منها الى أن وافته منيته سنة ١٠٤١ هـ .

وهكذا ظل المقرى قرابة أربعة عشر عاما بعيدا عن وطنه ، بل بعيدا عن « فاس » التى اتخذها دار اقامة له ، بعد أن رحل اليها من بلدته تلمسان التى كانت أرض ميلاده وأول بقعة مس جلده ترابها ..

ومن هنا نعرف أن رحلة المقرى الى المشرق لم تكن أول غربة صادفته فى حياته ، فقد سبقتها غربة من أرض ميلاده تلمسان الى دار اقامته فاس . وفرق ما بين الغربتين أن هذه كانت بين المغرب والمغرب ، وتلك كانت بين المشرق والمغرب . ومن هنا ندرك أن المقرى قد ذاق مرارة الاغتراب منذ أوائل عهده بالشباب . فقد غادر تلمسان نهائيا الى فاس سنة ١٠١٣ هـ وظل بالعاصمة المغربية

حاضرة الأشراف السعديين ما يقرب من أربعة عشر عامـا حتى اضطر الى تركها لأسباب غير واضحة ميمما وجهه شطر المشرق ، راكبا من أهوال البحر واضطرابه ما وصفه لنا فى صورة مؤثرة ، الى أن بلغ القاهرة فى شهر رجب سنة ١٠٢٨ هـ كما يقول فى موضع بعيد عن مقدمة « نفح الطيب » (٢) .

ومنذ حط المقرى رحاله فى مدينة فاس وهو كثير الحنين الى تلمسان أرض مولده . ولا يفوته أن يعبر عن هذا الحنين اللاعج فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض » الذى ألفه وهو نزيل بفاس . فقد كانت كتب الأقارب والأخوان ترد عليه من تلمسان ، ولعل أصحابها كانوا يقصدون منها تخفيف هموم الغربة عنه ، ولكن هذه الرسائل والكتب كانت تؤجج لوعته ، وتزيد فى ضرام حنينه ، وتحرك فيه كوامن الشوق ، فيأخذ فى التحنان الى معاهد تلمسان ومرابعها ، ورياضها وبدائعها . وندعه يصور لنا ذلك بقلمه على طريقته فى السجع قائلا : (ولم تزل كتب الأقارب والاخوان ترد على ، وتلقى عنان اعتنائها الى ، وتكرر وتعدد ، وتنتاب وتتردد ، وتتنوع وتتجدد ، فأرتاح اليها ارتياح الغصن عند هزته ، وأحن اليها حنين « كثير » الى معاهد « عزته » :

يا من يذكرنى حديث أحبتى   طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث على من جنباته   ان الحديث عن الحبيب حبيب

وكثيرا ما يحرك ذلك منى كامن شـوق ، شب عمـره عن

---

(٢) ص ٢٦٩ من الجزء الرابع من النفح .

الطوق ، وأجد من لواعج الأوار ، ما وجده الفرزدق عند مباينته « النـّوار » [٣] :

بلد الجزائر ما أمر نواهـــا كلف الفؤاد بحبها وهــواها
يا عاذلى فى حبها كن عاذرى يكفيك منك ماؤها وهــواها

والحنين الى الوطن مجال لكل حر ومضمار :

ايه أحاديث نعمان وســاكنه أن الحديث عن الأحباب أسمار

وليس بمستنكر حنين الناب الى عطنه ، والمرء الى محل نشأته ووطنه . وقد روينا فى الصحيح من حنين سيد الوجود عليه الصلاة والسلام وأصحابه الى مكة ، ما لا يجهله ألا من هو عن العلوم بمعزل . ومن الأبيات السائرة :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينــــه أبدا لأول منزل

ورب ذكرى أثارت الأشواق وحركتها ، وأنشبت النفوس فى حبائل البؤس وتركتها . وكم من ماجد ، بكى لفقد المشاهد ، واهتم لبعد المعالم والمعاهد :

سلام عــلى تلك المعاهد انهــــا
مراتع ألافى وعهـــــــد صحابى
ويا سرحة الحى انعمى ! فلطـــالما
سكبت على مثواك ماء شـــــبابى

---

(٣) النوار هى امرأة الفرزدق الشاعر ، وقد ندم على مفارقته لها بالطلاق قائلا :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار

أرأيت كيف كان حنين المقرى الى الوطن وهو فى حدود المغرب ، وليست المسافة بين تلمسان وفاس كتلك المسافات الشاسعة والمراحل البعيدة بين فاس والقاهرة ، أو بين فاس وأرض الحجاز ، أو بينها وبين بلاد الشام ؟ فليس عجيبا ولا مستغربا أن يتضاعف حنين المقرى الى وطنه وأهله منذ رحلته الى المشرق . وليس عجيبا أن نجد ذلك الحنين اللاعج فى أوائل كتبه ، وفى مقدمات مؤلفاته . فكما عجل بالتعبير عن الحنين الى الأوطان ، وهو نزيل بحضرة السلطنة فى فاس ، فى مقدمة كتابه « أزهار الرياض » الذى ألفه بفاس ، نراه كذلك قد عجل بالتعبير عن الحنين الى الوطن ، وهو مقيم على الغربة فى القاهرة فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » الذى ألفه استجابة لدعوة أحد أفاضل الدمشقيين . فهو منذ أمسك القلم ليخط نفح الطيب ، وفى الصفحات الأولى من هذا الكتاب الضخم ، يبدأ فى اظهار التشوق الى بلاد المغرب ، والحنين اليها ، ونتركه هنا يقول بنص عبارته : (ولم أزل بعد انفصالى عن الغرب بقصد الشرق ، واتصالى فى أثر ذلك الجمع بالفرق :

أحن اذا خلوت الى زمان
تقضى لى بأفنية الربوع
وأذكر طيب أيام تولت
لنا ، فتفيض من أسف دموعى !

وأتوق وقد اتسع من البعد الخرق ، وخصوصا اذا شدا صادح أو أومض برق ، الى ديار ، لا يعدوها اختيار :

وأربع أحبـــاب اذا ما ذكرتها
بكيت ، وقد يبكيك ما أنت ذاكـر
بطاح وأدواح يروعك حسـنها
بكل خليج نمنمته الأزاهـر)

ثم يمضى صاحبنا فى تشوقه وحنينه ، متمثلا بأقوال الشعراء الذين حنوا الى أوطانهم ، واشتاقوا الى معاهد طفولتهم ، ومراتع صباهم ، وجمال الطبيعة فى أرضهم ، كالشاعر الحائك الأمى الذى يقول :

لم أنس أياما مضت ولياليـــا
سلفت ، وعيشـا بالصريم تصرما
اذ نحن لم نخش الرقيب ولم نخف
صرف الزمان ، ولا نطيع اللومـا
والعيش غض ، والحواسـد نوم
عنا ، وعين البين قد كحلت عمى !!

وكالأديب المؤرخ ابن خلكان الذى يقول فى شعر رقيق :

أى ليل على المحب أطـاله	سائق الظعن يوم زم جماله
يزجر العيس طاويا ، يقطع المهمـ	ـه عسفا ، سـهوله ورماله
أيها السائق المجـد ترفق !	بالمطايا ، فقد سئمن الرحاله
وأنخها هنيهة وأرحهـا	أذ براها السرى وفرط الكلاله

لا تطل سيرها العنيف فقد برح ... بالصب فى سراها الأطالــــه
وارث للنازح الذى ان رأى ر ... بعا ثوى فيه نادبا أطلالـــه
يسأل الربع عن ظباء المصلى ... ما على الربع لو أجاب سؤاله؟!
ومحال من المحيــــل جواب ... غير أن الوقوف فيه عــــلاله
هذه سنة المحبين يبكون عــ ... لى كل منزل لا محـــــاله
يا ديار الأحبــاب لا زالت الأ ... عين فى ترب ساحتيك مــذاله
وتمشى النسيم وهو عليـــــل ... فى مغانيك ســــاحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـ ... رع عنـــــا ذهابه وزواله ؟
حيث وجه الزمان طلق نضـير ... والتدانى غصونه ميـــــاله
ولنا فيــك طيب أوقات أنس ... ليتنا فى المنــــام نلقى مثاله !

ويظهر أن شهاب الدين المقرى كان مشحونا بالحنين الى الوطن الى درجة لم تسعفه بها عبارته ، ولم تسعده بها قريحته ، فلجأ الى كثيرين من الشعراء يستعير منهم أشعارهم فى الحنين والغربة ، أو ان شئت ، يستعير منهم دموعهم ليسكبها عــلى صـفحات القرطاس فى « نفحه » . فما خطر على باله ، ولا قفز من ذاكرته شعر فى الحنين والشوق الى الأوطان الا سطره فى المقدمة أول الأمر ، ثم فى متن الكتاب بعد ذلك ، ولا يبالى بذلك الشعر الذى يرويه ان كان حنينا الى بلاد الغرب ، أم حنينا الى نجد بأرض الجزيرة العربية ، أم حنينا الى العراق ، أم حنينا الى أى بلد من بلاد الله .. فكله حنين ، وكله تعبير عن ذلك الشعور الذى يجده

الغريب نحو وطنه الذى نأى عنـــه ، ويأمل فى الاقتراب منه ، والأوبة اليه .

واذا كان معقولا أن يروى لنا المقرى شعرا فى الحنين الى الغرب لتشابه المناسبة بين الحالين : حال قائل الشعر فى الحنين الى المغرب، وحاله هو أيضا فى الحنين الى المغرب كذلك ، فقد يبدو بعيدا عن المناسبة واقتضاء المقام أن يروى لنا شعرا قيل فى الحنين الى نجد أو العراق أو غيرهما . ولو أنه قصر روايته فى شعر الحنين الى الأوطان على ما قيل من شعر فى الحنين الى المغرب لكانت المناسبة على أتمها ، والمشابهة على أكملها ، ولكنه أراد أن يحشد لنا حشدا هائلا من شعر الحنين مطلقا من غير ملاحظة تخصيص بحاله ..

ومما رواه المقرى من شعر الحنين الى الوطن ما فيه اظهار لفضيلة المغرب على المشرق ، مما لا يكاد يبرىء صاحبنا رحمه الله من مظنة الاتهام بالتعصب لبلاد المغرب .. فقد تمثل بشعر الشاعر الأديب الوداعى ـــ وهو شاعر أديب دمشقى اسمه على بن المظفر ت سنة ٧١٦ هـ ـــ فى تفضيل الغرب على الشرق قائلا :

(وأتمثل ان ذكرت حال وداعى ، بقول الشـــاعر الأديب الوداعى :

الغرب خير ، وعنـــد ساكنه   أمانة أوجبت تقـــــدمه
فالشرق من نيِّريه عنـــدهمو   يودع دينــــاره ودرهمه !)

ثم يصرح بعد ذلك برواية شعر لشاعر آخر فيه « اشارة لفضل الغرب وخيره » :

أشتاق للغرب وأصـــبو الى معاهد فيه وعصر الصـــبا
يا صاحبى نجواى والليــل قد أرخى جلابيب الدجى واختبا
لا تعجبا من ناظر ســـاهر بات يراعى أنجمـــا غيَّبا
القلب فى آثارها طـــائر لما رآها تقصـــد المغربا !

لقد كان المقرى يبحث فى مروياته أو كتبه عن شاعر أى شاعر يحن الى وطنه ، أى وطن ، ليسجل له شعره فى كتابه « نفح الطيب » . ومن هنا نراه يروى لنا شعرا قاله « السراج »(٤) صاحب كتاب « مصارع العشاق » فى الحنين الى العراق :

قد قلت والعبرات تســـ فحها على الخـــد المآقى
حين انحدرت الى الجـــزيرة وانقطعت عن العـــراق
وتخبطت أيدى الرفـــا ق مهامه البيـــد الرقاق :
يا بؤس من ســـل الزما ن عليه ســـيفا للفراق !

ولما طال بالمقرى فى الشرق شوقه وحنينه الى وطنه فى المغرب ، ولم يجد فى ذلك جدوى غير تقريح الجفون ، واذابة ماء العيون لجأ) الى التصبر ، بعد امعان النظر والتدبر ..

وأنى لأدرى أن فى الصـــبر راحة
ولكن انفاقى على الصبر من عمرى
فلا تطف نار الشوق بالشوق طالبا
سلوا ، فان الجمر يُسعر بالجمر ..)

---

(٤) هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج المعروف بالقارىء البغدادى . توفى سنة ٥٠٠ هـ .

وهكذا لم يجد مفرا من التسليم ، ولا مندوحة من الاذعان والاستسلام ، فى انتظار ما تجرى به أحكام الزمان . وهنا أخذ يروى لنا شعرا آخر يضطرب بين الجزع حينا وبين التعزى بالسلوان أحيانا ، عسى أن يبدل الله المرء دارا فيها من السعود مثل ما فى أوطانه التى فقدها ، كتسلّيه بقول بعض أعيان الأندلس ولم يذكر لنا اسمه :

لا تكترث بفراق أوطان الصبا
فعسى تنال بغيرهن سعودا
فالدر ينظم عند فقد بحاره
بجميل أجياد الحسان عقودا

ولا عزاء بعد هذا الشعر أجمل ولا أليق فى التسلى عن فراق الأوطان ، فالدر يفارق موطنه فى البحار ، ولكنه فراق للكرامة لا للمهانة ، حيث ينظم عقودا بهية تجمل به الحسان أجيادهن ، وتحلى به الغيد نحورهن ..

ونطوى الجزء الأول الضخم من « نفح الطيب » ، ونحسب أننا فرغنا فيه من شعر الحنين الى الوطن الذى ملأ به الرجل مقدمته . ويخيل الينا أن صاحبنا قد تأسى وتصبر .. ولكنا نجد فى الصفحات الأولى من الجزء الثالث من النفح أن الرجل يعاوده الحنين الى بلاده ، وهو فى معرض الحديث عن لسان الدين ابن الخطيب وأوليته وأسلافه ، فقد استطرد الى ذكر قصيدة

للوزير الشهير عبد العزيز الفشتالى [٥] مدح بها النبى عليه السلام ، وتخلص من مديحه الى مدح السلطان أحمد المنصور العباسى الحسنى سلطان المغرب أيام كان المقرى لا يزال فيه لم يبرحه الى الشرق . ونرى المقرى يمهد لتسجيل القصيدة بقوله : (وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة ، لبلاغتها التى بزت شعر اليتيمة والخريدة ، ولأن شجون الحديث الذى جر اليها شوقتنى الى معاهدى المغربية التى أكثر البكاء عليها بحضرة المنصور بالله الامام ، سقى الله تعالى عهادها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤمل لم يحجبه مانع ..) وبعد أن أورد المقرى قصيدة الوزير الفشتالى ختمها بقوله : (انتهت القصيدة التى فى تغزلها شرح الحال ، وأعرب عما فى ضمير الغربة والارتحال ..) .

ولم يكتف المقرى بهذا بل أخذ يمهد لروايته قصيدة أخرى للامام محمد بن عبد السلام المغربى التونسى قائلا فى التعليل لتسجيلها فى هذا الموضع : (فانها نفث مصدور غريب ، وبث مغدور أديب ، فارق مثلى أوطانه وما سلاها ، وقرأ آيات الشجو وتلاها ، وتمنى أن يجود له الدهر برؤية مجتلاها ..) .

وكنا نظن أن يقف المقرى عند هذا الحد ، ولكن حنينه الى

---

(٥) هو عبد العزيز محمد الفشتالى . بالفاء لا بالقاف كما ورد خطأ فى بعض المراجع ، وقد كان وزيرا للسلطان أحمد المنصور سلطان المغرب فى عصر المقرى ، وكان بينه وبين المقرى مودة وصلة ، ويصفه بأنه الوزير الكبير الشهير صاحب القلم الأعلى .

وطنه ليس له حدود ، فبعد أن فرغ من رواية قصيدة محمد ابن عبد السلام التونسى لما اشتملت عليه من شعر فى الشوق الى المعاهد ، والحنين الى الديار ، أخذ يمهد لرواية قصيدة نونية للوزير لسان الدين بن الخطيب قائلا : (ولصاحب الترجمة لسان الدين بن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية — يريد وزن وقافية قصيدتى التونسى والفشتالى — مدح بها السلطان أبا سالم المرينى حين فتح تلمسان ، وقد رأيت ايرادها فى هذا الباب ، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب ، الذى حير الألباب ، وللمناسبة أسباب ، لا تخفى على من له فكر مصيب ، وكل غريب للغريب نسيب ..) [٦] .

ولعل المناسبة التى يشير اليها المقرى تلميحا ، والتى تؤكد لنا المشابهة بين حال الرجلين فى الاغتراب عن الوطن هى التى تفسر لنا بعض التفسير سر ارتحال المقرى الى الشرق وهجرته من المغرب ، مما يجد القارىء الكريم تفصيل الحديث عنه فى فصل آخر من هذا الكتاب ..

على أن شهاب الدين المقرى لم يكن المغربى الوحيد الذى رحل الى الشرق فغالبه الحنين الى أهله ووطنه بالمغرب . فهناك عشرات سبقوه ، وعشرات جاءوا بعده ، وصادفهم فى رحلتهم الى الشرق مثل ما صادفه . ولكننا نجتزىء هنا بذكر واحد منهم وهو الأديب ابن سعيد المغربى الذى جاء الى الشرق فى القرن السابع

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٦ .

الهجرى ونزل بمصر وأقام فيها مدة ، وندعه هنا يصور لنا شعوره بالغربة قائلا : (ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وحشة ، وآثار تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصيبا ، وصحبت بها الزمان غلاما ، ولبست الشباب بردا قشيبا ..) [7] . وقد انفعل بن سعيد المغربى بهذه الأثارة التى أنطقته بقصيدة فاتنة مطربة يقول فيها :

هذه مصر فأين المغرب مذ نأى عنى فعينى تسكب !
فارقته النفس جهلا . انما يعرف الشىء اذا ما يذهب
أين حمص [8] أين أيامى بها بعدها لم ألق شيئا بعجب !

وبعد أن يستعيد لنا فى صور شعرية فاتنة أيامه الجميلة فى الأندلس وأحواله السعيدة بها ينتقل الى وصف حاله بمصر قائلا :

هذه حالى ! وأما حالتى فى ذرا مصر ففكر متعب !
سمعت أذنى محالا ! ليتها لم تصدق ويحها من يكذب !
هأنا فيها فريد مهمل وكلامى ولسانى معرب !
وأنادى : مغربيا ! ليتنى لم أكن للغرب يوما أنسب ..

على أن هذا التمنى فى الانسلاخ من النسبة الى المغرب عند ابن سعيد المغربى يقابله اصرار على « المُغربية » عند صاحبنا المقرى ، وهو اصرار يذكرنا باصرار المؤرخ العبقرى ابن خلدون على أن يتزيا فى مصر بالثياب المغربية ولا ينزعها أبدا ..

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦.
(٨) هى حمص التى كانت بالأندلس لا حمص الشامية .

مؤلفات المقّرى

اشتهر أبو العباس أحمد المقرى بكتابه (نفح الطيب) أكثر من شهرته (بأزهار الرياض فى أخبار عياض) ، ولعل مرد ذلك الى أن النفح قد طبع منذ أكثر من مائة عام فى أولى طبعاته بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٩ هـ — سنة ١٨٦٢ م ثم طبع بعد ذلك سنة ١٣٠٢ هـ — سنة ١٨٨٥ هـ فى المطبعة الأزهرية ، فعرفه الناس وتداولوه ، واشتهر أمر الكتاب وصاحبه لأنه كان أول كتاب يتناول الحديث عن الأندلس بالتفصيل . ولما طبع النفح طبعته الثالثة بمصر سنة ١٩٤٩ م كان ذلك استجابة لتلهف الناس الى هذا الكتاب الذى عرفوا قدره فالتمسوه وافتقدوه . أما أزهار الرياض فقد طبع سنة ١٩٣٩ بمصر عن بيت المغرب بالقاهرة ، وصدر منه ثلاثة أجزاء محققة على أوفى ما يكون التحقيق ، ومن هنا جاءت معرفة الناس به متأخرة بعد النفح ببضعة عقود من السنين . ولم تغن طبعة الجزء الأول من أزهار الرياض فى تونس سنة ١٣٢٢ هـ — سنة ١٩٠٤ م فقد كانت شائهة محرفة مملوءة بالأغلاط . وندع الأديب التونسى الحبيب الجنحانى يصف تلك الطبعة التونسية قائلا : (طبع الجزء الأول من أزهار الرياض فى المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ ، وقامت بطبعه

اذ ذاك الشركة التونسية لطبع الكتب العربية التى لم تعمر طويلا ، كأكثر المشروعات التونسية ، رزقنا الله الصبر ، والدأب ، والاخلاص ! وهذه الطبعة محرفة تحريفا مخجلا ، وخالية من التعاليق ، وليس فيها مقدمة تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ، وعن كيفية التحقيق ..) [1] .

وللمقرى كتب أخرى بعضها ثابت له ، وبعضها مشكوك فى صحة نسبتها اليه ، وبعضها مفقود لا يعلم له وجود ، وبعضها لا نعلم غير أسمائها ، وبعضها مشروعات كتب كان فى نية المقرى أن يؤلفها ، ولا ندرى ان كان أنجزها بعد ذلك أم لا . وسنتناول التعريف بهذه الكتب فيما يلى من صفحات ، مبتدئين « بالنفح » الذى يعد أوسعها وأمتعها وأحفلها بالفوائد وأشملها للتاريخ والأدب والشعر ، والذى لو لم يكن للمقرى الا اياه لكفاه ذلك فضلا .

١ ـ نفح الطيب

واسمه الكامل الذى أقره المقرى بعد التعديل الذى أدخله عليه : (نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) . ويذكر لنا الرجل نفسه أسباب تأليفه لهذا الكتاب . فقد كان وهو فى دمشق يتذاكر مع أدبائها وأعلام علمائها أخبار الأدب والتاريخ ، فينجر بهم الحديث الى ذكر البلاد

---

(١) كتاب « المقرى » للحبيب الجنحانى ـ ص ٨٣ ـ طبع تونس سنة ١٩٥٥ .

الأندلسية ، ووصف رياضها ، وتاريخها ، وأعلامهـا . والرجل يفيض عليهم من حفظه الواسع ، ومرويه الكثير ما يدهشهم ، حتى انتهى الى ذكر لسان الدين بن الخطيب — وله فى التاريخ الأندلسى دور كبير — فأفاض المقرى فى مجالسه الدمشقية فى أخبار الرجل وآثاره ، وشعره ونثره ، وشيوخه وكتبه وأتى فى كل ذلك بالمعجب المطرب . فاقترح عليه المولى أحمد بن شاهين أن يصنف فى ذلك كتابا . ولكن بعد المقرى عن كتبه ومراجعه فى المغرب قد جعل له مندوحة من الاعتذار عن مثل هذا العمل . وتكرر الاعتذار من المقرى ، وتكرر الالحاح من أديب الشام وشاعرها أحمد شاهين . فاضطر المقرى آخر الأمر الى القبول ، ووعد بالشروع فى تأليفه عند وصوله الى القاهرة . ويحدثنا المقرى أنه شرع بعد العودة الى مصر فى تأليف النفح ، وكتب منه هنا نبذة مستحسنة . ولكن مركب العزم وقف به عن اتمام الكتاب . فلما علم المولى الشاهينى بذلك كتب اليه يستنجزه وعده ، فلم يجد المقرى بدا من المضى فى الكتاب الى غايته واتمامه . وقد فرح أحمد شاهين حين زفه اليه المقرى بشرى انجاز النفح ، وعبر عن ذلك برسالة لطيفة بعث بها اليه من دمشق (٢) .

ويصرح لنا المقرى فى مقدمته الطويلة للنفح بأنه أسماه أولا : (عرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب) ثم وسمته

(٢) نفح الطيب ج ١ ص٥٤ .

ـــ حين ألحقت أخبار الأندلس به ـــ بنفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) .

وقد ارتفع المقرى بكتابه هذا عن أن يؤلفه تقربا الى ملك ، أو التماسا للعطاءمن‌سلطان ، بل ألفه قضاء لدين ، ووفاء لوعد سبق . ويقول فى ذلك : (ولم يكن جمعى ـــ علم الله ـــ هذا التأليف لرفد أستهديه ، أو عرض نائل أستجديه ، بل لحق ود أؤديه ، ودين وعد أقدمه وأبديه) ، فخالف بذلك ما جرى عليه عرف كثير من العلماء من تأليف الكتب تقربا الى الأمراء والحكام .

ويذكر لنا المقرى عبارة وجيزة فى تقديم كتابه هذا يقول فيها : (فانى قد جمعت فيه ما يندر جمعه فى غيره ، وكل الصيد فى جوف الفرا) [3] ، ثم يصف لنا القطعة الأولى التى كتبها منه قائلا فى أول الكتاب : (وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت فى ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت فى سوقه كل نفيس غريب من الغرب الى الشرق مجلوب) [4] .

وقد جعل المقرى فى كتابه نفح الطيب الوزير لسان الدين ابن الخطيب مركزا تدور حوله طائفة كثيرة من المعلومات والمعارف فى التاريخ والأدب والأشعار والأخبار والأسمار ، وأكثرها عن الأندلس التى ينتمى اليها الوزير الشاعر الأديب . فللنفح غرضان : التعريف بابن الخطيب أولا ، وبالأندلس وأخبارها ورجالها ثانيا .

---

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص٤٨٧.
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢ .

وقد وفق المؤلف فى الغرضين ، وملأهما بسيل فياض من المعارف والنوادر ، ورجع فى تأليفه الى مصادر وكتب كثيرة لم يتح لغيره الاطلاع عليها ، ولا يزال كثير منها مفقودا الى اليوم . وقد ناقشنا فى موضع آخر من كتابنا هذا ما قيل من أن النفح منقول عن « المغرب » لابن سعيد . « فالمغرب » لا يغنى عن نفح الطيب شيئا ، لأن فى النفح من أخبار العصور بعد عصر ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى ما يجعل منه مصدرا حافلا عظيما عن الأندلس والمغرب . وخاصة الأندلس فى أيام محنتها الأخيرة وخروج العرب منها ، وان كان المقرى لم يفصل أخبار ذلك كما فصّل فيما قبل ذلك من أخبار ..

وقد قسم المقرى كتابه نفح الطيب الى قسمين كبيرين : أولهما فى الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها وفيه ثمانية أبواب ؛ فى وصف الجزيرة الأندلسية ، وفتح العرب لها ، وعز الاسلام بها ، ووصف قرطبة وجامعها وقصورها ، والتعريف ببعض من رحل الى المشرق من الأندلسيين ، وذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، وذكر طائفة من حكايات أهل الأندلس ونوادرهم الدالة على توقد أذهانهم ، والأخير منها فى الحديث عن تألب العدو على المسلمين والأندلس ، حتى استولى عليها ، ومحا كلمة الاسلام منها ..

أما القسم الثانى من النفح فهو فى التعريف بابن الخطيب ، ويشتمل كذلك على ثمانية أبواب .

٢ ـ أزهار الرياض ، فى أخبار عياض

لقد صنف المقرى هذا الكتاب وهو فى المغرب بمدينة فاس قبل مجيئه الى المشرق . ومن لطيف المفارقات ان آشهر كتابين للمقرى ألف أحدهما فى بلاد المغرب ، وألف الآخر فى بلاد المشرق ، حتى تكون النسبة بينهما على سواء . وكما كان تأليف النفح استجابة لدعوة أديب عالم دمشقى ، كان تأليف أزهار الرياض استجابة لطلب جماعة من أهل بلده تلمسان الذين أحبوا أن يؤلف كتاب فى تاريخ عالم المغرب ومحدثه وقاضيه الامام عياض بن موسى ابن عياض ، صاحب كتاب « الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى » وهو مشهور . وكان القاضى عياض من أعلم الناس بكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، وهو سبتى المولد ، غرناطى الاقامة ، مراكشى الوفاة . سنة ٥٤٤ هـ .

وقد لقى كتاب أزهار الرياض فى المغرب قبولا ورواجا عظيمين ، وأثنى عليه العلماء فى وقته ثناء مستطابا ، وتسابق الناس الى انتساخه بصورة لم تعهد فى كتاب . وقد كان العالم أحمد ابن عبد العزيز أبى عمرو ـــ صديق المقرى ـــ هو أول من نسخه ، وقدمه الى المقرى ليقيد على هامشه بعض تعليقاته بخطه . ويشير الشيخ محمد بن يوسف التاملى صديق المقرى الى هذا فى رسالة له اليه قائلا : (وأما تأليفكم الكثير الفوائد ، المسمى بأزهار الرياض فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض ، فقد انتشر فى هذه الأقطار المراكشية ، وانتسخت

منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدى أحمد بن عبد العزيز ابن الولى سيدى أبى عمرو ، وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلباب القبول ، فما رآه أحد الا نسخه ، وعندى النسخة التى كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن ، وعلى هامشها فى بعض الأماكن خطكم الرائق ، وبعض التشبيهات من كلامكم الفائق ..) [٥] .

واذا كان فى النفح اعادة كلام كثير مما جاء فى أزهار الرياض ، فان المقرى يصرح بذلك ولا يكتمه ، بل قد يزيد فى النفح على ما جاء به فى الأزهار فى بعض المواطن ، كما قد يكون فى بعض المواطن ناقصا عنه .

٣ ـ فتح المتعال ، فى مدح النعال

ألف المقرى هذا الكتاب بالقاهرة ، حيث كان مع جماعة من الأعلام يسمرون ويتحدثون ، وجرهم الحديث الى النعل النبوية ومثالها الكريم ، وما قيل فيه من الأمداح المنثورة والمنظومة . وينفعل المقرى بهذا ، فينظم فى نعل النبى أرجوزة وينشد فيها أشعارا كثيرة ، ثم يطلب اليه التصنيف فى هذا الموضوع الذى جمع فيه كثيرا من القصائد التى كان يحفظها وهو بالمغرب . والكتاب يبين ناحية اعتقادية دينية عند المقرى كانت مثار اهتمام وشغف عند المتدينين وخاصة فى دمشق . ومن هذا الكتاب نسخ

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠ .

خطية فى مكتبات مغـربية ومشرقية . ولم يصـل الى علمنا أنه طبع [٦] .

٤ ـ أتحاف المغرم المغرى ، بتكميل شرح الصغرى

بدأ المقرى تأليف كتابه هذا فى المغرب ، وما كاد يحط رحله فى الاسكندرية حتى أكمل ما كان قد فاته من ذكره . وهو فى علم الكلام ، ولم يطبع الى اليوم ، وتوجد منه نسخة خطية فى خزانة جامع الزيتونة .

٥ ـ اضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة

وهو منظومة أو أرجوزة فى علم الكلام والتوحيد ، وقد بدأه فى المغرب أيضا وأتمه فى القاهرة . ومنه نسخ فى تونس .

٦ ـ روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، فى ذكر من لقيته من أعـلام مراكش وفاس

وموضوع الكتاب مذكور فى العنوان ، فهو من كتب التراجم التى تعد ذات قيمة لتعريفنا ببعض أعلام الرجال فى عصر المقرى . ولكنه مع الأسف مفقود . ويذكر الأستاذ عبد الحى الكتانى أن اسم الكتاب فى فهرس المكتبة السلطانية بفاس ، ولكن الكتاب نفسه غير موجود ! ولعل يدا امتدت اليه . ويشير المقرى نفسه الى كتابه هذا فى نفح الطيب قائلا : (وقد بسطت الكلام عـلى

---

(٦) فى كتاب الأستاذ الحبيب الجنحانى تفصيل المواطن التى توجد فيها مخطوطات هذا الكتاب .

السلطان المذكور فى كتابى : روضة الآس ، .. الخ) [7] والسلطان الذى يشير اليه هنا هو المنصور السعدى ، عظيم دولة السعديين فى المغرب .

ومن مؤلفات أبى العباس المقرى : « حسن الثنا ، فى العفو عمن جنى » وقد جمع فيه بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة فى طلب العفو عن المذنب . وقد طبع على الحجر فى مصر بدون تاريخ فى سبع وأربعين صفحة . و « الشفاء فى بديع الاكتفاء » و « الأصفياء » وقد عرفناهما من رسالة بعث بها المولى الشاهينى اليه . ولا نعلم عن موضوعهما شيئا . كما لا يعلم مكان وجودهما ان كانا موجودين . و « أتحاف أهل السيادة ، بضوابط حروف الزيادة » يعنى حروف (سألتمونيها) المشهورة فى كتب النحو . وقد أشار اليه المقرى فى النفح قائلا : (وقد جمعت فى المغرب زيادة على ما تقدم ، وكنت قدرت رسالة فيها أسميها اتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة) [8] ويظهر أن هذه الرسالة لم تتم ، و « أنواء نيسان ، فى أنباء تلمسان » ويظهر أنه كذلك من الكتب التى لم تتم ، ويشير اليه المقرى فى النفح قائلا : (وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع فى شأنها كتابا ممتعا ، أسميه بأنواء نيسان ، فى أنباء تلمسان ، وكتبت بعضه ثم حالت بينى وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها الى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق ، فشغلت بأمور الامامة والفتوى والخطابة وغيرها) [9] .

---

(٧) نفح الطيب جـ٤ ص٢٣٣ • (٨) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٧١.
(٩) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٦٨ •

ومن مشروعات الكتب عند المقرى كتاب « نشق عرف دمشق » أو « مشق قلم المدح لدمشق » ويشير اليه فى النفح بأنه كان فى نيته أن يجمع فيها كتابا حافلا ، ويظهر أن هذه النية لم تقترن بالتنفيذ . أما الكتاب المسمى « الجمان فى أخبار الزمان » فالتحقيق على أنه ليس له وأنه كان مما نسخه من تأليف غيره ، فظنه بعض من لا يحققون أنه له . ويؤكد الأستاذ الجنحانى أنه لمحمد ابن على الصقلى المشهور بالحاج الشطبيى المتوفى سنة ٩٦٣ هـ ويسوق على هذا بعض الأدلة القوية . على أنه من الخير للمقرى أن لا يكون هـذا الكتاب له ، فهو كما يصفه الأديب الباحث التونسى : (عديم الجدوى ، ليس فيه فائدة البتة ، وأن دل على شيء فانما يدل على غفلة مؤلفه ، وضعف تفكيره) .

نهاية المطاف

اذا جرينا على رأى الذين استظهروا أن ميلاد المقرى كان حوالى سنة ٩٩٢ هـ ، وعرفنا أن وفاته على رأى أكثر مؤرخيه سنة ١٠٤١ هـ ، فان الرجل يكون قد قضى فى الحياة ما يقارب الخمسين عاما .

ولقد طوف المقرى فى الأرض شرقا وغربا ، فما كانت تلذ له الاقامة فى بلد لمدة طويلة . الا اقامته فى فاس التى بلغت أربعة عشر عاما ، من سنة ١٠١٣ الى سنة ١٠٢٧ هـ ، واقامته فى القاهرة التى بلغت ما يقرب من أربعة عشر عاما كذلك — من سنة ١٠٢٧ الى وفاته سنة ١٠٤١ هـ .

ويشاء الله أن لا يفرح المقرى بعودته الى وطنه فى المغرب بعد طول الحنين له والتشوق اليه . ولعله كان بعد عودته من زيارة دمشق سنة ١٠٣٧ على نية العودة الى وطنه ، ولكن الأخبار كانت توافيه دائما من أصدقائه فى المغرب بسوء أحواله ، واضطراب أموره ، وانتقاض الأمراء السعديين بعضهم على بعض ، طمعا فى السلطان ، مما جر الى فتن يشيب لهولها الولدان . فما الذى يحمله على الرجوع الى وطن مملوء بالفتن ، مشحون بالهزات والاضطرابات منذ اللحظة التى غادره فيها الى المشرق ؟

ولعل الرسالة التى بعث بها من المغرب اليه بعض أصـحابه ممن كانوا يقرءون عليه دروس العلم فى حضرة السلطنة السعدية تكشف لنا عن بعض ما كان يجرى فى المغرب من أهوال . وفيها يقول مرسلها : (هذا وأنه ينهى الى الوداد القديم ، أن أهل الغرب الأدنى والأقصى حاضره وباديه ، كلهم يتفـكهون بل يتقوتون بذكركم ، ويشتاقون لرؤية وجهكم ، ويتلذذون بطيب أخباركم . وان كان المغرب الآن فى تفاقم أحوال ، وتراكم أهوال فى الغاية ، مدائن وبوادى ، لا سيما مدينة فاس فانها فى شر عظيم ..) [1] .

ولقد أنزل أهل الشام صاحبنا المقرى منهم أكرم منزل ، وألحوا الطلب عليه بأن يعاود الكرة الى زيارتهم والاقامة بينهم . ووعدهم الرجل بالانجاز ، وسجلوا عليه هـذا الوعـد فى رسائلهم اليه بالقاهرة [2] . وقد كان الرجل على نية أن يجيبهم الى رجائهم ، ولكن انشغاله بحادث طلاق زوجته ، وحزنه على فقد طفلته ، قد صرفاه عن هذا القصد ، وقعدا به عن أن يحرك للأسفار قدما ، فظل يؤلف نفح الطيب ، وظل يكمل تأليفه حتى سنة ١٠٣٩ كما يقول فى آخر الكتاب . ويسكت التاريخ عن أخباره من سنة ١٠٣٩ الى سنة ١٠٤١ الى أن يذكر لنا المحبى صاحب خلاصة الأثر نبأ وفاته بالقاهرة فى جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وألف حيث دفن بمقبرة المجاورين .

ولم ينفرد صاحب خلاصة الأثر بذكر وفاة المقرى فى القاهرة ،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٦٢ . (٢) المصدر نفسه ص ٥٤٩ .

فقد ذكر وفاته بها أيضا على بن معصوم صاحب « سلافة العصر » ، وقد كان الرجلان ـــ أعنى المحبى وابن معصوم ـــ قريبين كل القرب من عصر المقرى ، فقد ماتا فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، ولا شك أن روايتهما عن وفاة أبى العباس المقرى بالقاهرة هى رواية لا يتسرب اليها ضعف ، لقرب عهدهما من الرجل من ناحية ، ولقرب اقامة المحبى من القاهرة من ناحية أخرى .

وقد جاء فى كتاب « تعريف الخلف » أن المقرى مات مسموما بالشام ، ونقل الأستاذ الحبيب الجنجانى عنه هذه الرواية [٣] ، كما نقل رواية وفاته بالقاهرة ، وقدمها عليها . ولكنه لم يعلق على رواية الوفاة مسموما بالشام بكلمة . وكنا نود أن نسمع رأيه فى هذه الرواية التى لا نعلم من أى مصدر استقاها مؤلف « تعريف الخلف » . وهى رواية يشك المرء فى قبولها وتصديقها ، وخصوصا أن المحبى صاحب « خلاصة الأثر » كان مقيما بالشام لأنه دمشقى ، ولو أنه عرف شيئا عن وفاة المقرى مسموما هناك ما تردد فى الاشارة اليه أو تسجيله فى كتابه فى تراجم القرن الحادى عشر .

على أن المحبى لم يكتف بأن يقول بوفاة المقرى فى مصر ، بل زاد على ذلك أنه دفن بقرافة المجاورين ، وليس بعد هذا مجال للقول بأن صاحبنا مات مسموما بالشام . واذا انتفت حكاية موت المقرى بالشام انتفت معها حكاية وفاته بالسم ، فالخبر كله متكامل ؛ فأما أن يقبل كله أو يرفض كله .

---

(٣) المقرى : دراسة تحليلية ـ طبع تونس ـ ص ٥٧ .

ولو قلنا ان من الجائز أن يكون المقرى قد مات بالقاهرة فعلا ، ولكنه مات مسموما ، فنحن فى حاجة الى من يوثق لنا هذا القول ، وخاصة أن ابن معصوم والمحبى قد ذكرا نبأ الوفاة بمصر أو القاهرة ، ولكنهما لم يشيرا الى حادث السم على الاطلاق .

وقد نقل الأستاذ خير الدين الزركلى فى « الأعلام » رواية موت المقرى بالشام مسموما عن كتاب « تعريف الخلف » ، ولم يعلق عليها بشىء يوهنها أو يؤكدها ، ولكنه ذكرها بصيغة التضعيف قائلا : « وقيل توفى بالشام مسموما » أما الأستاذ عمر رضا كحالة صاحب « معجم المؤلفين » فذكر أنه توفى بالقاهرة فى جمادى الآخرة . ولم يتعرض للرواية الأخرى بشىء ، مع أنه كثيرا ما يرجع الى أعلام الزركلى مصدرا من مصادره . ولعل شكه فى هذه الرواية وعدم ارتياحه اليها جعله ينفيها نفيا تاما من معجمه .

وبمناسبة ذكر دفن المقرى فى مقبرة المجاورين بالقاهرة نستطرد ــ كعادة المقرى الذى سرت الينا عدواه ! ــ الى ما قاله الأديب التونسى الحبيب الجنحانى تعليقا على هذه القرافة أو المقابر من أنها (احدى المقابر الواقعة شرقى القاهرة ، وقد اندثرت الآن) وذكر أنه نقل هذا عن « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى . والذى فى النجوم هو تعليق من المرحوم « محمد رمزى بك » على تربة الأمير قراسنقر التى بناها فى مقبرة المجاورين. وقد اندثرت التربة ، أما مقابر المجاورين نفسها فهى لا تزال

— والآجال بيد الله — ... ين ..

هذا مبلغ تحقيقنا لوفاة المقرى ومكان دفنه وسبب موته ، على أن سنة وفاته تحمل اختلافا بين المؤرخين وكتاب السير . ولا نذكر أحدا سبقنا الى تحقيق عام الوفاة بهذا الدليل الذى سيأتى بعد ، والذى نعده فيصلا فى القضية .

فقد ذكر المحبى صاحب خلاصة الأثر أن وفاة المقرى كانت (فى جمادى الآخرة سنة احدى وأربعين وألف) وقد كتبها بالحروف لا بالأعداد على عادة القدماء ، حتى تكون أكثر ضبطا ، وأبعد عن اللبس والتحريف فى الأرقام .

ولكننا اذا رجعنا الى صاحب « سلافة العصر » وجدناه يقول : (وكانت وفاته سنة ستة وأربعين وألف) أى سنة ١٠٤٦ بالأعداد . وكتابة ابن معصوم لها بالحروف تدل على مبلغ تحريه للضبط حتى لا يتسرب وهم اليها . ولكنا نشك فى صحة هذا الضبط . ولعله من تحريفات النساخ والمطابع معا ، فان كتاب سلافة العصر المطبوع فى مصر سنة ١٣٢٤ مشحون بكثير جدا من التحريفات المطبعية ، وطبعته هذه شائهة محرفة لا نطمئن اليها ونحن نرجع الى قراءتها من حين الى حين ، ونأخذ عباراتها وأعلامها وتواريخها دائما بالحذر الشديد . ولم نطلع على الأصل المخطوط الذى أخذت عنه طبعة أمين الخانجى هذه ، فلعل ذلك كان يهدينا الى أصل هذه اللفظة : أهى : ستة وأربعين وألف ، أم احدى وأربعين وألف .

وهناك رواية ثالثة ذكرها صاحب ذيل كشف الظنون تقول

ان المقرى توفى سنة ١٠٤٣ . ولا ندرى من أين جاء بها اسماعيل البغدادى صاحب الذيل ، وان كان الحبيب الجنحانى نقلها فى هامش كتابه ، كما نقل رواية ابن معصوم صاحب السلافة ، وعلق عليهما بقوله : (ويبدو أن رواية ١٠٤١ هـ هى الصحيحة) .

والحق مع الأديب الجنحانى فيما (بدا) له فى هذه المسألة ، وان كان لم يؤيد رأيه بدليل ، أو يدعمه بتدليل ، بل اكتفى بما بدا له.. على أن بين أيدينا دليلا قويا يؤكد رواية سنة ١٠٤١هـ ، وينفى كل رواية غيرها مما أملاه الوهم وعلقت به الأوهام . فان الأديب الشاعر الدمشقى ابراهيم الأكرمى الذى كان معاصرا للمقرى ، والذى عقد معه صلات الود فى أثناء زيارته لدمشق ، قد أرخ وفاته بتاريخ شعرى لطيف يقول فيه :

قد ختم الفضل به   فأرخـــوه خاتم

ومجموع حروف كلمة « خاتم » بحساب الجمل هو (١٠٤١) ،

فان الخاء = ٦٠٠
والألف = ١
والتاء = ٤٠٠
والميم = ٤٠

فيكون مجموعها ١٠٤١ .

ونرجو أن يكون هذا الدليل الذى لا يقبل النقض هو فصل الختام فى هذه القضية ، قضية تاريخ وفاة الأديب المصنف المغربى

الذى مشى من المغرب الى المشرق خطواته المكتوبة ، ليلقى منيته فى أرض مصر ، التى رحبت به ، ولكنه ضاق بها — لظروفه الخاصة — فاتسعت له مقابرها التى تسع آلاف الآلاف ، ولكنها لا تشبع ..

وهكذا مضى المقرى وقضى فى القاهرة ولسان حاله يقول :

مشيناها خطى كتبت علينا — ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض — فليس يموت فى أرض سواها

فهرس

الدار القومية للطباعة والنشر